أول رحلة فرنسية إلى العربية السعيدة

(١٧٠٨ - ١٧١٠م و ١٧١١ - ١٧١٣م)

تأليف

جان دي لاروك

ترجمة

منير عربش

تقديم

توميسلاف كلاريك

المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية بصنعاء

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

SANAA 2004

أول رحلة فرنسية إلى العربية السعيدة

(١٧٠٨ - ١٧١٠م و ١٧١١ - ١٧١٣م)

تأليف
جان دي لارُوك

ترجمة: مُنير عربش
تقديم: توميسلاف كلاريك

المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعيّة بصنعاء

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
والمعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية بصنعاء

١٤٢٥هـ - 2004 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء
(٢٠٠٥/٩٢)

الناشر
الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - ص.ب. (36) - (237)
هاتف: 235114 - فاكس: 235113
بريد الكتروني: moc@y.net.ye

مر بهاء صنعاء وخليات عمقها في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية. يأتي هذا الاحتفاء بمجد الكلمة وجلال أنوارها في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة.

وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات.. حدثاً ينوح صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان
وزير الثقافة والسياحة

رحلة إلى العربية السعيدة
عبر المحيط الهندي ومضيق البحر الأحمر
(١٧٠٨-١٧٠٩-١٧١٠)

وفيها رواية خاصة لرحلة من ميناء المخاء إلى قصر ملك اليمن خلال حملة الاكتشاف الثانية خلال الأعوام ١٧١١ -١٧١٢ -١٧١٣.

كما تحتوي على بحث حول شجرة القهوة وثمرتها، بناء على الملاحظات التي أثبتها رواد تلك الرحلة الأخيرة ، بالإضافة إلى رسالة تاريخية حول اصل القهوة وتطورها، ان يكن في آسية أو أوروبا، ووصولها إلى فرنسا وانتشار تداولها في باريس .

امستردام – مكتبة ستينهاور و يوتوير ١٧١٦

تمهيـد

يأتي نشر ترجمة كتـاب جـان دي لاروك "رحلـة الـى العربيـة السعيدة" في إطار إسهامات المعهد الفرنسي للآثـار والعلـوم الاجتماعيـة بصنعاء ضمن فعاليات صنعاء عاصمة الثقافـة العربيـة ٢٠٠٤م. وهـذه الترجمة هي واحدة من الأعمال والبحوث حـول الـيمن التـي قـام بهـا الفرنسيون والأوروبيون والتي يقوم بترجمتها ونشرها وتقديمها إلى القـراء اليمنيين المعهد الفرنسي. فبعد نشر ترجمة رحلة هاليفي تأتي هذه الترجمة لسـد فراغ في المكتبة العربية عامة واليمنية خاصة. بالرغـم من أن دي لاروك هو صاحب الكتاب إلا أن ما يدهشنا أن هذا الكاتب الفرنسي المبدع الذي عاش في بداية القرن الثامن عشـر لم تطأ قدمـه اليمن وإنما اعتمـد على الرسائل والكتابات التي تركها البحارة الذين شاركوا في الرحلتين إلى العربية السعيدة (١٧٠٨ -١٧١٠ و ١٧١١-١٧١٣). وقـد تصـرفنا فـي عنوان الكتاب لطوله واختصرناه الى "أول رحلة فرنسـية الـى العربيـة السعيدة" بدلا من "رحلة فرنسية الى العربية السعيدة عبر المحـيط الهنـدي ومضيق البحر الأحمر".

وتمدنا رحلة الفرنسيين إلى المخـاء بصورة غير مكتملة عن اليمن في ذلك العصر الذي كانت تحكمه سلالة الأئمة القاسميين.

نستشف من خلال هذا الكتاب نظرة الفرنسيين لليمن في ذلك الحين ومن الواضح بأن معرفتهم بتاريخ اليمن وحضارتها كانت ضئيلة جداً بالرغم من أن معلوماتهم عن الشرق كانت لا بأس بها.

وكان لا بد من انتظار وصول العلماء الفرنسيين في القرن التاسع عشر لايصال صورة دقيقة عن اليمن و تاريخها إلى الأوساط العلمية.

لقد راودتني فكرة ترجمة هذه الرحلة بعد إنتهائي من ترجمة رحلة جوزيف هاليفي إلى اليمن في ١٨٦٩ – ١٨٧٢ (المركز اليمني للبحوث والدراسات بصنعاء ، ١٩٩٢). وصدرت في الثمانينات من القرن الماضي ترجمة جزئية لكتاب دي لاروك. وبطلب من الباحثين اليمنيين ومنهم القاضي إسماعيل الأكوع قام المرحوم الباحث يوسف شلحد بترجمة الجزء المتعلق بزيارة الوفد الفرنسي للإمام صاحب المواهب، تم نشرها في مجلة العرب (الجزء ١١، ١٢، ١٩٨٥) وفي مجلة دراسات يمنية (العدد ١٨، ١٩٨٤، ص ٦٧–٨٠). وقام بدوره القاضي إسماعيل الأكوع بنشر كتاب عن أعراف وتقاليد أئمة اليمن علق فيه على هذا الجزء من كتاب دي لاروك وقام كعادته بتصحيح بعض المعلومات التي وردت في هذا الجزء المتعلق بحياة الأئمة اليومية (أعراف وتقاليد اليمن في العصر الإسلامي، ١٩٩٤، ص ٥٨–٦٨). وصدرت أيضا ترجمة لهذا الكتاب نقلت عن اللغة الانكليزية وبدون فهارس (أبو ظبي، ١٩٩٩) وقد نفذت من الأسواق في الوقت الذي أنتهيت فيه من الترجمة.

وبطلب من الباحثين اليمنيين تابعت تحضير الترجمة من اللغة الفرنسية مع الفهارس وطلبت من زميلي الباحث توميسلاف كلاريج

(جامعة كوتنغن ، ألمانية) المهتم بتاريخ الدولة القاسمية بكتابة مقدمة تاريخية عن العصر الذي كتب فيه دي لاروك رحلته فقبل مشكوراً.

أما فيما يتعلق بالأخطاء الإملائية في كتابة أسماء الأماكن والأشخاص عند دي لاروك فقد نقلتها كما هي في النص الأصلي وأضفت بين قوسين() القراءة الصحيحة.

أتوجه بالشكر والامتنان للمعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية بصنعاء الذي موّل الترجمة ولوزارة الثقافة والسياحة لتولّيها طبع هذه الترجمة بالتعاون مع المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء.

وأقدم شكري العميق إلى زميلي الأستاذ محمد عبد الرحيم جازم لقراءته النص المعرب و لملاحظاته القيمة وللأستاذ محمد لطف غالب لمراجعته للنص. كما أشكر أيضا الأستاذ ريّح عبد القادر للتصحيحات اللغوية للترجمة.

وأخيراً أشكر الأستاذ محمد سنه لمساعدته في تنظيم وإدخال الفهارس على الكمبيوتر.

منير عربش

صنعاء عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٤

تقديم

إن الهيمنة البرتغالية على المحيط الهندي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي تعتبر نقطة تحول هامة في النظام القديم للطرق التجارية بين الغرب والشرق. وحتى هذا التاريخ أي القرن الخامس عشر كانت البضائع الآسيوية المتوجهة إلى الأسواق الأوروبية تمر بشكل رئيسي عبر البحر الأحمر ثم تنقل عبر مصر الى موانئ البحر الأبيض المتوسط. ومن ثم كانت هذه البضائع والمواد الآتية من الشرق تنقل على السفن لتعبر البحر الأبيض المتوسط لتحط في الموانئ التجارية الأوروبية مثل راكوسة والبندقية ومرسيليا .

بعد اكتشاف الطريق التجاري الجديد عن طريق رأس الرجاء الصالح حاول البرتغاليون السيطرة على الطرق البحرية الواقعة في المحيط الهندي وحاولوا أيضاً تحويل البضائع التجارية عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى عاصمتهم لشبونة.

وفي القرن السابع عشر فقد البرتغاليون دورهم المسيطر على التجارة العالمية حينئذٍ خصوصاً مع بلاد الهند واضطروا إلى إخلاء مكانهم للشركات الإنكليزية والهولندية القوية في ذلك الوقت: الشركة الإنكليزية المسماة بـ East India Company التي أسست في عام ١٦٠٠م

والمؤسسة الهولندية التي أنشئت في عام ١٦٠٢ المعروفة باسم Verenigte Oostindische Compagnie (VOC). وهاتان الشركتان البحريتان قد رستا في بداية القرن السابع عشر على السواحل اليمنية ونجحتا بإنشاء مركز تجاري في المخاء في سنة ١٦١٨م.

أما الفرنسيون فقد دخلوا في ميدان التنافس التجاري بعد قرن من الزمن بالمقارنة مع المنافسين الأوروبيين. فلم يرسلوا وفداً تجارياً إلى اليمن إلا بعد الاستهلاك المكثف للبن اليمني الذي عرفته البلدان الأوروبية. فافتتحت المقاهي الأولى في البندقية في عام ١٦٤٧م وفي أكسفورد ١٦٥٠م وفي هامبورج في سنة ١٦٦٧ وفي باريس في عام ١٦٧١م.

كما هو الحال مع هولندا وإنكلترا فإن فرنسا كدولة احتكرت أيضاً التجارة مع بلاد الهند، فالتجارة مع الشرق كانت مقيدة بقيود تفرضها الدولة من خلال مؤسسة تكفلها بنفسها. ولكن عدم قدرة الشركة الفرنسية، التي أسسها كولبير في عام ١٦٦٤م والتي كانت تتولى التجارة مع بلاد الهند، و في آخر الأمر ومواجهة للإفلاس بداية من عام ١٧٠٦م سمحت لتجار لديهم مؤسسات خاصة بالتدخل والاستفادة من هذه التجارة.

فوافق رؤساء هذه الشركة نقصد بذلك الشركة التي كانت تضمنها الحكومة الفرنسية في نوفمبر ١٧٠٧م على توقيع اتفاقية تسمح من خلالها "للسيد مارتان دي لاشابيل من ميناء سان مالو بالقيام برحلة إلى الخليج الفارسي والبحر الأحمر لشحن القهوة والبضائع الأخرى."

ونتج عن هذه الاتفاقية إرسال الوفد الفرنسي الأول إلى اليمن في شهر يناير ١٧٠٨م. و في رحلتهم الأولى رست الباخرتان Le Curieux و Le Diligent في ميناء المخاء في يناير ١٧٠٩م واستطاع تجار مدينة سان مالو عقد إتفاقية تجارية مع عامل ميناء المخاء الذي كان في أوج ازدهاره الاقتصادي تسمح لهم بالإقامة في المدينة وممارسة شعائرهم الدينية والقيام بالتجارة. وفي مقابل ذلك كانوا يدفعون ضريبة جمارك قدرها ٣% من قيمة البضائع المباعة.

حقّق دخول التجار من سان مالو في البحر الأحمر هدفين هامين مقارنة مع الانكليز والهولنديين الذين سبقوهم في ذلك.

أولاً أنشأ الفرنسيون علاقات تجارية مباشرة بين فرنسا و شبه جزيرة العرب بشكل عام واليمن بشكل خاص. فالبن الذي كان يُشترى في ميناء المخاء كان يصدر بأكمله مباشرة إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

أما البواخر الهولندية فكانت ترسو في ميناء المخاء آتية من جزيرة سيلان أو باتافيا وكانت السفن الإنكليزية تأتي من بومباي وسورات محملة بالبضائع الهندية والبهارات. وكانت ترجع إلى هذه المراسي محملة بالبنّ من ميناء المخاء وكان أكثره يباع في الأسواق المحلية. وما تبقى من بنّ المخاء يشحن مرة ثانية من ميناءي باتافيا وبومباي لينقل إلى الموانئ الأوروبية.

ثانيا تمكن تجار سان مالو من شراء كميات ضخمة من القهوة في رحلاتهم فقد اشتروا عند رحلتهم الأولى أكثر من نصف مليون كيلو من البنّ من سوق بيت الفقيه. فالهولنديون لم يتجاوزوا هذا الرقم إلا في عام

١٧١٣ – ١٧١٤. وقد تجاوز تجار سان مالو هذا الرقم في رحلتهم الثانية فبلغ أكثر من مليون كيلو من البنّ الذي تم شحنه في سفن فرنسية غادرت ميناء المخاء في تموز ١٧١٢م.

إن قصة الرحلة الثانية من سنة ١٧١١ – ١٧١٣ تعتبر ذات أهمية خاصة للمؤرخ لأنها تعطي صورة مدهشة لبلاط الحكم في اليمن في ذلك الوقت.

كانت اليمن حينذاك تحت حكم الدولة القاسمية أي سلالة الأئمة الزيدية التي أسسها الإمام المنصور القاسم (١٥٩٧-١٦٢٠) وابنه المؤيد محمد اللذان نجحا بفضل جهد وكفاح قاس و طويل ضد العثمانيين الذين كانوا مقيمين في اليمن منذ سنة ١٥٣٨ بطردهم من اليمن في عام ١٦٣٥م.

وتعتبر المدة الطويلة لعهد الإمام المتوكل إسماعيل (١٦٤٤ – ١٦٧٦) العصر الذهبي للسلالة القاسمية. فخلال حكمه سيطرت الجيوش القاسمية على لحج وأبين وحضرموت فوصل نفوذ الأسرة القاسمية في هذا الوقت إلى قمته من حيث هيمنتها على اليمن: من عدن جنوباً إلى عسير ونجران شمالا ومن المخاء غرباً إلى ظفار شرقاً.

خلف الإمام إسماعيل الإمام المهدي أحمد (١٦٧٦ – ١٦٨١) والإمام المؤيد محمد (١٦٨١ – ١٦٨٦). عندما وصل تجار سان مالو الفرنسيون ميناء المخاء ، كان يحكم اليمن الإمام المهدي محمد. وهو الإمام السادس من السلالة القاسمية. ففي عام ١٦٨٦م بعد أن توفي الإمام المؤيد محمد أعلن إمامته أو دعا لنفسه - كما هو المصطلح في

المذهب الزيدي- في المنصورة في منطقة الحجرية من بلاد تعز والتي كان يقيم فيها. وقد واجه بعد دعوته معارضة من أفراد البيت القاسمي ولكن في آخر الأمر نجح بالتغلب على كل منافسيه. والجدير بالذكر هنا بأن الإمام المهدي محمد كان يحمل ثلاثة ألقاب وهي الناصر عند بداية دعوته ثم غيره و اتخذ لقب الهادي في سنة ١٦٩٥و لقب المهدي في سنة ١٦٩٧.

استقر في بداية عهده في منطقة رداع حيث أسس حاضرته الخضراء ولكن بعد أن أصيب بمرض تركها في عام ١٦٩٩م وأقام في قرية المواهب في شمال شرقي ذمار حيث استقر حتى وفاته في عام ١٧١٨م ولهذا لقب بصاحب المواهب المعروف لدى كل مؤرخي وإخباريي و أصحاب تراجم ذلك العصر.

وانتقد الكثير من العلماء حكم هذا الإمام و تصرفاته ومن أشهرهم القاضي محمد بن علي الشوكاني. فكتب في كتابه المشهور بالبدر الطالع أنه كان "ملك من أكابر الملوك كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير و ينفقه بلا تقدير و كانت اليمن من بعد خروج الأتراك منها إلى أن ملكها صاحب الترجمة يعني الإمام المهدي محمد مصونة من الجور والجبايات وأخذ مالا يسوغه الشرع فلما قام هذا أخذ المال من حله و غير حله فعظمت دولته وجلت هيبته وتمكنت سطوته و تكاثرت أجناده وصار بالملوك أشبه منه بالخلفاء."

وعندما وصلت السفن الفرنسية إلى المخاء بتاريخ ٢ ديسمبر ١٧١١م كان الإمام مريضاً عنده خراج مزعج في الأذن. وكان وزيره حينذاك صالح بن علي الحريبي الذي كان عاملا في المخاء وقد التقى مع

الفرنسيين في رحلتهم الأولى. وأثنى على مهارتهم الطبية فنصح الإمام باستدعاء طبيب فرنسي إلى البلاط ، واستجاب الفرنسيون لطلب الإمام فأرسلوا وفداً برئاسة السيد دي لاغرلونييير و مكون من السيد باربيه جراح ماهر من الباخرة Le Diligent و غادر الوفد الفرنسي ميناء المخاء بعد الظهر يوم ١٤ فبراير ١٧١٢م ووصل إلى المواهب بعد ثمانية أيام وبقوا في البلاط مدة ثلاثة أسابيع واستطاعوا خلالها التعرف عن قرب على الحياة اليومية الخاصة بالإمام .

وصلت صورة اليمن هذه بفضل الكاتب جان دي لاروك (١٦٦١ – ١٧٤٣) الذي نشأ في مرسيليا و كان أبوه تاجراً. وهو أحد مؤسسي أكاديمية مرسيليا في عام ١٧١٥م وكان جان دي لاروك عالماً متضلعاً في اللغة والأدب مشغوفاً بالشرق بفضل إقامته الطويلة فيه.

فباطلاعه على ما كان يكتب عن الشرق في ذلك الوقت وقعت يده على مقالة من مجلة Mercure يدور موضوعها حول تفاصيل الرحلة التي قام بها تجار مدينة سان مالو. لفتت هذه المقالة نظر و فضول جان دي لاروك فبدأ بجمع كل الرسائل التي كتبها البحارة الذين شاركوا في الرحلتين إلى اليمن.

قام جان دي لاروك من خلال هذه الرسائل والكتابات بصياغة نص أدبي جديد ونشره فيما بعد تحت عنوان (رحلة إلى العربية السعيدة). وكان هذا الكتاب الأول و الهام الذي قد نشر له. وقد ألحق بهذا الكتاب بحثاً ودراسة عن تاريخ انتشار القهوة وتداولها في الشرق وفي فرنسا.

بالرغم من أن جان دي لاروك لم تطأ قدمه اليمن لكنه نجح ببراعته الأدبية و بفضل معرفته بالشرق من إعطاء صورة حية وشيقة عن اليمن. فبكونه أديباً وعالماً عاش في عصر النهضة الذي عرفته أوروبا آنذاك، فقد انتقد في بعض المواضع في كتابه التجار الفرنسيين لقلة اهتمامهم وفضولهم المعرفي عند زيارتهم لليمن. فبكونهم تجار كانت اهتماماتهم مركزة فقط على موضوع القهوة وتجارتها وزراعتها. وتأسف دي لاروك لعدم زيارة التجار الفرنسيين لصنعاء. فمثلاً أتوا إلى بلاط الإمام عند استدعائهم لتعريفه بفرنسا وأيضاً للتعرف على ما هو مفيد لفرنسا من الناحية التجارية. وتأسف أيضاً لاروك لجهل التجار الفرنسيين باللغة اليمنية وهذا ما حجب عنهم الحصول على معلومات غزيرة وقيمة عن الوضع السياسي في ذلك الوقت وخاصة عن الدولة القاسمية التي كانت تحكم اليمن.

ولكل هذه الأسباب مجتمعة فالأغلاط والهفوات التي وردت في كتاب دي لاروك مثلا عند ذكره لأسماء الأماكن والأشخاص والحوادث يمكن فهمها وتقبلها لسبب واضح نعرفه وهو أنه لم يأت إلى اليمن. فمثلاً خلط في كتابه بين شخصية الإمام المهدي محمد ونسبه للسلالة الأيوبية مع أنها قد حكمت اليمن في القرن الثاني عشر الميلادي. كانت اليمن في نظر الفرنسيين محطة تجارية فقط. ونستشف عكس ذلك عند دي لاروك من خلال رؤيته لليمن التي كان يعتبرها فعلاً العربية السعيدة.

توميسلاف كلاريج

صنعاء، سبتمبر ٢٠٠٤م

إلى السيد الكونت بونشارترين
وزير وسكرتير دولة
فارس الملك

سيدي،

إن الحماية الفريدة التي تشرفون بها التجارة أو بالأحرى العناية التي تخصون بها كل ما من شأنه أن يساهم في تنميتها، تجعلني آمل أن تقبلوا بطيب خاطر المؤلف الذي سمحت لنفسي أن أقدمه لكم. فهو يحتوي على رواية صحيحة للرحلة الأولى التي قام بها الفرنسيون إلى بلاد لم تكن معروفة رغم موقعها في القارة القديمة. العربية السعيدة، سيدي، بالرغم من اسمها وشهرتها العريقة لم تجذب حينها اهتمام التجار ولا فضول المسافرين. وقد حدثنا بعضهم عن العربية السعيدة لاجتيازهم جزءا من صحاريها ومن شطآنها البحرية. إلا أن أحدا لم يخطر له التوغل إلى داخل اليمن أي إلى الجزء الأكثر جمالا من ذلك البلد الشاسع، ليوافينا عنه بالمعلومات الأكيدة. ولقد كنتم وافقتم على مشروع هذه الرحلة الأولى وشجعتم كل ما من شأنه إنجاحها. لذا فإننا مدينون لكم نوعا ما لوفرة ذلك المنتج الذي يصدره بلد واحد، والذي يبدو أن فرنسا لا تستطيع الاستغناء عنه. نحن مدينون لكم أيضا لتلك الطرائف المفيدة في التاريخ والجغرافيا والفيزياء التي حرصنا على جمعها إبان حملتنا هذه . وإني أعلم سيدي أني أوشك أن أثير استياءكم إذا ما تماديت في البوح بكل الخير الذي أكنه لكم

بالمناسبة، إذ لا شيء يمكن أن يمس تواضعكم أكثر من المديح الذي يليق بكم. بيد أني فخور بأن هديتي ستلقى ترحيبا أفضل شرط أن أوجز القول مؤكدا أنه لا يمكن الإضافة إلى الاحترام البالغ الذي نكنه لكم، سيدي،

عبدكم المتواضع والمطيع لاروك

باريس، في ٢٥ مايو/ايار ١٧١٥

توطئة

منذ ثلاث أو أربع سنوات ظهرت في مجلة "مركور" المطبوعة في تريفو، رواية صغيرة عن رحلة إلى المخاء لفتت انتباه القراء. كما واثارت اهتمامي لأني بعد أن كنت قد قمت بجولة في بعض نواحي الشرق دون الدخول إلى شبه الجزيرة العربية شعرت برغبة في التعرف على تلك البلاد اكثر مما كنت عليه: وما كان الموجز الصغير الذي نوهت عنه ليكفي لإرواء غليلي. وهذا ما دفعني للاتصال بالكابتن الرئيسي للبحرية وكان أيضا رئيس تلك الرحلة ومديرها. وهو نفسه الذي قاد الرحلة المذكورة في مجلة "مركور". وقد وفقت في جميع الأحوال إلى ذلك بفضل صديق جاءني من قبله بعدة رسائل ومذكرات. ثم أن هذا الكابتن أتى إلى باريس بصدد أعمال تجارية اضطرته إلى البقاء فيها ستة اشهر كاملة، فاغتنمت فرصة إقامته وأخذت منه كل الإيضاحات وما يكمل التعليمات التي كتبها لي في رسائله. وفي النهاية فان هذه المادة استرعت اهتمامي اكثر فاكثر وزادت من رغبتي، فدأبت على تدوين كل هذه الأمور تدريجيا في تقرير كامل حول الرحلة إلى العربية السعيدة.

وقد تركت الكلام في هذه الرواية لكاتب الرسائل والمذكرات، أي إلى الرحالة نفسه، وقد بدا لي هذا الحل هو الأنسب في جميع الأحوال. في الحقيقة جعلته يتكلم بشكل مختلف حرصا على وحدة الأسلوب وعلى

تنظيم الأمور التي تقرأ في تلك الرسائل. وبما انه لا يمكننا إضافة شيء على الطابع الحقيقي الذي يظهر جليا في المذكرات التي أتكلم عنها لان المؤلف قد كتبها دون تحري التنميق في الأسلوب وإنما حصر غايته في إفادة صديق له دون أن يزيد على ما رأى أو على ما اخبره الناس، فإني أصررت على الاحتفاظ بتلك الخاصية التي تضفي على هذا النوع من المؤلفات مزيدا من الاعتبار والتقدير.

أما بالنسبة لمعاهدة التجارة والرسائل الصادرة عن سلطات البلاد الواردة ضمنا فيما بعد فان كاتبنا كان قد حصل على ترجمات لها في تلك البلاد قام بها أشخاص غير متمكنين جيدا من لغتنا ولذا فإني لم أر ما يبرر الاعتماد عليها. بل حصلت منه شخصيا على النسخ الأصلية وتمت ترجمتها بالشكل الذي نشرت فيه هنا من قبل السيد بيتي دولاكروا السكرتير المترجم لدى الملك وأستاذ اللغة العربية في المجمع الملكي والذي اعترف الجميع بكفاءته العالية وحزنوا على فقدانه (توفي في الرابع من كانون الأول / ديسمبر١٧١٣). وأظن أن أصحاب الاهتمام والعلماء أنفسهم سوف يعترفون لي بالجميل لأني قدمت تلك الوثائق واذكر منهم بالخصوص السيد اوكلي استاذ اللغة العربية الشهير في جامعة كامبردج الذي قام منذ وقت قريب بنشر كتاب (رواية عن جنوب غرب البربر وسواها، مطبوعة في كامبردج سنة ١٧١٣، حيث ينشر الكاتب رسائل من ملك المغرب وسواه) يدعو فيه التجار وغيرهم من الأشخاص الذين لديهم رسائل مماثلة أن يرسلوها إليه، وذلك لأنه كان على اقتناع بان ذلك النوع من الرسائل يقدم صورة عن عبقرية الشرقيين وأسلوبهم في التعبير، ما من شأنه ان يشرح لنا العديد من مواضع الكتاب المقدس.

كنت اود ان اضع في مطلع هذه الرواية خريطة للعربية السعيدة بكاملها ولكني بعد التفكير وجدت اني لن اتمكن من النجاح في ذلك بدون مجازفة. في الواقع سيكون من السهل الاكتفاء برسم ما لدينا حول شبه الجزيرة العربية بشكل عام، الا ان ذلك سيضاعف نسبة الاخطاء بدلا من اصلاحها. فالرحالة لم يجوبوا بعد المناطق الداخلية لهذا البلد الواسع ليتمكنوا من انشاء مخطط كامل له. إذ تكاد تكون سواحل العربية السعيدة على المحيط الهندي والبحر الاحمر الوحيدة التي نالت وصفا مقبولا. اما معظم ما تبقى فانه ما يزال غامضا وناقصا حتى وقتنا هذا في كتب الجغرافيا عند الاوروبيين.

وتلافيا للنقص نوعا ما وتركيزا على الموضوع الرئيسي لروايتي هذه التي تتعلق فقط بمملكة اليمن أي بأجمل واشهر منطقة في العربية السعيدة، نجد هنا خريطة لهذه المملكة رسمها السيد دي ليل، عضو الاكاديمية الملكية للعلوم، بكل العناية والدقة التي عرف بها، وذلك ليس فقط بعد المراجعة لمذكرات الرحالة الاصلية وبعد مقابلة المندوب الفرنسي المبعوث الى البلاط الملكي في اليمن، ولكن ايضا بعد الاطلاع على مؤلفات اشهر الجغرافيين العرب ومن بينهم الشريف الادريسي (وهو المؤلف الذي نسميه خطأ الجغرافي او بالعربي النوبي وقد كتب كتابه في صقلية تلبية لامر الملك روجيه في القرن الثاني عشر) وابو الفداء اللذان كتبا عن هذا البلد. وبهذا الشكل وبانتظار الاكتشافات الجديدة يمكننا ان نفخر بتقديم وثيقة تنال ايضا الاعجاب لاحتوائها على ما تيسر لنا من جديد المعلومات ومن الدقة.

اما في ما يتعلق بابي الفداء، وهو جغرافي ذو شهرة كبيرة عند العرب، فقد ترجمت منذ زمن كتابه في الوصف الكامل لشبه الجزيرة العربية الذي لم يترجمه احد قبلي الى الفرنسية. وقد تفيد هذه الترجمة في التعريف بشبه الجزيرة العربية، وهي تشكل جزءا من المؤلف الذي يشغل وقتي حاليا وهو ذو علاقة وطيدة مع هذا المؤلف الى حد قد يكون تتمة له. هذا ان اتضح لي ان الجمهور يرحب بروايتي هذه ويعتبرها جديرة بما ترضي رغبته في المعرفة.

موافقة

من السيد بوريت، مستشار الملك، وقارئه، وأستاذه، الدكتور المدير في كلية الطب في باريس، عضو الأكاديمية الملكية للنقوش والأوسمة والمراقب الملكي للكتب:

لقد قرأت بناء على طلب السيد المستشار هذا المؤلف الرحلة الى العربية السعيدة عن طريق المحيط الهندي الخ' وأني أرى أن صدوره سيعجب جمهور القراء لما سيجدون فيه من الإيضاحات الشيقة والأمينة حول بلد قلما يعرفه علماء الجغرافيا والرحالة عندنا.

باريس في ٢٢ يونيو/حزيران ١٧١٥

التوقيع

السيد بوريت

الرحلة إلى العربية السعيدة

الرسالة الأولى

رواية الرحلة انطلاقا من فرنسا ووصولا إلى الميناء الأول في العربية السعيدة

سيدي،

لقد باشرت بإرضاء اهتمامكم حول الرحلة التي قمت بها إلى العربية السعيدة بصفتي ربان السفينة ورئيس شركة تجار من سان مالو وهم أول الأوروبيين الذين تنبهوا للعمل التجاري مباشرة ودون وساطة بلدان أخرى مع تلك البلاد ولاسيما تجارة القهوة التي كان الفرنسيون يشترونها من الأتراك في المشرق، وفي بعض الأحيان من الإنكليز والهولنديين. أملي أن تنال روايتي هذه بما تحمله من جديد ممتع مزيدا من رضاكم بفضل دقتها وحقيقة الوقائع التي وردت فيها.

الانطلاق من ميناء بريست

انطلقت المركبتان الحربيتان اللتان تحملان اسما "الفضولي" و"المجتهد" المسلحتان لمهمة القرصنة والتجارة، كل واحدة منهما بخمسين مدفعا، وكنت صعدت إلى المركب الأول، غادرنا مدينة بريست في السادس من يناير/ كانون الثاني عام ١٧٠٨ متجهتين نحو قادس: وفي طريقنا أسرنا مركبين إنكليزيين، أحدهما كان سفينة ركاب متجهة إلى

لشبونة، والآخر كان محملا بسمك المورة مغادرا لشبونة. دفع الأول فدية مقدارها ٧٥٠ جنيها إسترلينيا لأنه كان قد فقد صواريه، أما الثـــاني فقد دفع ١٥٠٠٠ جنيها إسترلينيا لأنه لم يتحمل عناء إيصالهم الى قاديس.

قاديس

وصلنا إلى هذا الميناء في الأول من مارس / اذار، وبعد أن حملنا معنا قطع نقود نولية ونبيذا وكحولا، شرعنا بالاتجاه نحو شبه الجزيرة العربية في الثلاثين من الشهر نفسه مرورا برأس الكناري وجومر ومنها إلى جزر الرأس الأخضر.

جزر سان فانسان

في الثاني والعشرين من نيسان اخّذنا ماء وجمعنا بعض الحطب من جزيرة سان فانسان حيث وجدنا سمكا ممتازا واصطدنا من سمك الكابري، ويعطي البحر في تلك النواحي كثيرا من السلاحف الا انه لم يكن موسم صيدها. تركنا الجزيرة في الخامس والعشرين من نيسان وعبرنا الخط في الخامس عشر من مايو/ ايار.

جزيرة اسانسيون (الصعود)

في الثاني من يونيو/حزيران، بعد ان اجتزنا جزيرة اسانسيون (الصعود)، اكتشفنا مركبا ما لبثنا ان وصلنا اليه بعد وقت قصير فاقتربنا منه وتعارفنا معه من مركبنا الوحيد مدة خمس ساعات، وقد الحق بنا

اضرارا لكن الليل فصل بيننا وفي الغد لحقنا به فاستسلم بعد عدة قصفات بالمدفعية.

وكان هذا المركب من ميدلبورغ، ويسمى "المنتصر الكبير" (جران فينكور)، وكان متجها نحو رأس الرجاء الصالح للاستراحة هناك ويبحر بعدها الى باتافيا، كان يقل مائتين وخمسة رجال وستة وثلاثين مدفعا. وكانت حمولته غنية جدا تحتوي فيما تحتويه على عدة صناديق فضة وبعض سبائك ذهبية.

رأس الرجاء الصالح

في السابع من تموز اقتربنا من رأس الرجاء الصالح الذي تبشر به الجماعات الوفيرة من الطيور الموجودة في نواحيه، ذات الريش المتنوع والاحجام المختلفة اصغرها كالحمام واكبرها كالبجع. كما يحتوي البحر هنا على كميات كبيرة من نباتات تسميها العامة "جويمون" او الطحالب البحرية (في اللاتينية "فوكوس" او "الغا"، *وصفها السيد دي رومور في موضع غير مرتقب من كتابه "تاريخ اكاديمية العلوم"* عام ١٧١١) ويساوي حجم اغصانها حجم ذراع، ويعيش فيها عدد من القواريس البحرية.

في اليوم الثامن كنا على بعد ستة فراسخ من الرأس، فاوقفت السفينة عرضا ورفعت علم المجلس، مما حمل السيد شامبلوريه قائد "الديليجان" على الالتحاق بنا مع ضباطه للبت في مصير سجنائنا.

اجمع الاغلبية على ان نتركهم على الشاطئ حرصا على زادنا الذي من الممكن ان ينقصنا في رحلتنا الطويلة، ولكنني تبينت الخطر الكامن في

ان تصل الى حاكم رأس الرجاء الصالح الهولندي، حيث توجد قلعة ومرفا جيد، معلومات عن غنائمنا وعن مشاريعنا، وهذا ما لا شك حاصل في حال نزول السجناء مما سيدفع الحاكم الى استعجال سفينة انذار الى جنرال باتافيا الذي لن يتردد في ارسال عدة مراكب ضخمة الى مدخل البحر الاحمر لاغلاقه في وجهنا، وهذه عقبة كفيلة بالقضاء على مراكبنا بسبب الأرضة، وقد حصل ذلك لمراكب فرنسية عند مصب نهر الغانج.

فاقتنع الجميع كما توقعت، واتجهنا نحو رأس الشعيرات، والقبطان الهولندي الذي كان على مركبنا مع ضباطه يتحسر على عدم النزول، بل ولم يمتنعوا بشتى الوسائل عن اعلامنا ان الخشية التي ابديتها كانت مؤسسة على الواقع.

رأس الشعيرات

الشعيرات: سميت كذلك لان عقرب البوصلة في تلك المناطق تتوقف وتصبح ثابتة باتجاه مستقيم نحو الشمال. وهذا ما يدعوه البحارة الشمال الشرقي.

بعد عبور هذا الرأس مررنا برصيف يحمل الاسم نفسه فارسينا ووجدنا المسافة ٥٦ ذراعا والقعر مليئ بالحجارة. كان البحر هائجا جدا مع ان الطقس كان جميلا. ثم تابعنا الطريق وتوغلنا في اتجاه الغرب أكثر مما ينبغي، اذ حملنا التيار البحري، وهذا ما ادى بنا بعد يومين الى رؤية نيران خلال الليل، جعلنا نعتبر اننا اصبحنا بالقرب من سواحل "الكافر"

وبالتدقيق أثيوبيا الشرقية. فانحرفنا مبتعدين عن الشاطئ ثم دخلنا في قناة موزانبيق.

وبعد عدة أيام، أي في السابع من أغسطس / آب، شاهدنا الرصائف اليهودية فصعدت على الشراع لافحصها. تلك الصخور البحرية تشبه كثيرا ما نسميه المينكي، أي سلسلة من الصخور التي لا تغمرها المياه على مساحة اكثر من فرسخين ما بين جزيرة جيرسي وجزيرة سان مالو.

في اليوم التالي تشاورنا حول مرض طاقم البحارة الذي اصيب بداء الحفر، وعزمنا ايضا على تنفيذ هدف برنامجنا الاول وهو الذهاب الى انجوان والنزول في مرفأ مسالي المريح في جزيرة سان لوران او مدغشقر، والذي حفزنا على ذلك هو ضابط انكليزي كان قد ابحر على ظهر المركب "ديليجان"، الذي كان قد زار مدغشقر سابقا واقترح ان يقودنا بشكل اكيد الى ذلك الميناء.

فابحرنا في الحال وبعد ان قطعنا رصيف مدغشقر الطويل وجدنا البحر هادئا ورأينا على سطح المياه نوعا من البيض او شحم السمك وهو ما يسميه بحارونا القدماء بنطفة الحوت. وفي اليوم الثالث ظهرت الارض فرفعنا كل اشرعتنا ودخلنا بعد وقت يسير في خليج من اروع ما يكون ويحفه شاطئ جميل. وما ساورنا شك البتة بانه لم يكن خليج مسالي.

جزيرة سان لوران او مدغشقر

ارسينا مركبنا في المدخل على مسافة ثمانية او تسعة باعات على عمق لابأس به، وشاهدنا في الوقت ذاته جزعة (زورق مصنوع بتجويف

جذع شجرة) او قاربا شراعيا محليا يبحر محاذيا رأس الخليج الذي يقع في الجهة الشمالية. وكان يقل ثلاثين رجلا من الزنوج. فاسرعنا في الحال الى قواربنا للتقرب منهم والحديث معهم، ولكن ما ان اجتزنا هذا الرأس حتى وجدنا ان الرجال السود قد اصابهم الهلع وعادوا الى الشاطئ حاملين القارب على اكتافهم هربا نحو الغابات الموجودة بكثرة على امتداد ذالك الشاطئ.

وكل ما استطاع رجالنا فعله هو ان يعرفوا بواسطة مترجمنا العربي عن بعض العبيد الاخرين الذين التقوا بهم وسقوهم من الكحول ان ملكا لهذه البلاد يقيم على مسافة لا تزيد عن ١٨ او ٢٠ فرسخا من هناك، وان في ذلك الموقع ميناء يوجد فيه كل ما نرغب. وبعدها لجأوا هم ايضا الى الغابة. اما نحن فبعد ان اصطدنا كمية لا بأس بها من السمك الممتاز في تلك المياه، وبعد ان اتضح لنا ان الموقع لم يكن ذلك الخليج الذي سعينا اليه وان بحارنا الانكليزي كان على خطأ، اشرعنا للابحار في صبيحة الحادي عشر باتجاه ميناء مسالي حسب ما اشار لنا العبيد بالتدقيق.

حاذينا الشاطئ على بعد ثلاثة ارباع الفرسخ. وتوجد هناك بعض المساكن التي يقيم فيها اناس من العرب يمارسون التجارة مع سكان مسقط حيث يوجد ميناء يحمل الاسم ذاته ويقع بالقرب من الخليج الفارسي، كما وانهم يشيدون مراكبا لتحميل العبيد والبضائع الاخرى من مدغشقر. وقد اكتشف وجودنا مركبان صغيران لهؤلاء العرب، ولشدة خوفهم اتجه احدهما نحو البحر اما الثاني فقد انقلب غارقا.

في اليوم التالي، أي في الثاني عشر من الشهر، ارسينا في مرفأ مسالي، وكان السيد شامبلوريه الذي نزل قبلنا قد ارسل مندوبنا الرسمي

الانكليزي ليطلب من ملك البلد الذي لايبعد مسكنه عن الميناء الا ستة فراسخ، تقديم بعض المرطبات لطاقمنا والسماح لنا بالنزول الى الميناء. فوافق الملك على الطلبين مما دفعني الى الذهاب لأداء واجب الشكر. فحملني عبدان يتناوبان مع اثنين اخرين على سرير معلق صنع من قطعة نسيج سميك من القطن مثنية من الطرفين ومعلقة على عصا طويلة، العبد الاول يحمل العصا من الامام والاخر من الخلف.

استطعت التفاهم مع الملك بواسطة بعض الانكليز المستوطنين في هذا البلد والذين يعرفون ايضا اللهجة المحلية، وكان استقبالي عنده جيدا. مد الملك لي يده وذلك دليل على تقديره البالغ. اذ ان كبار رجالات المملكة لا يقتربون من الملك الا لتقبيل فخذه. لن اصف لكم الان القصر ولا حاشية الملك حيث بدا لنا كل شيئ بسيطا وبدائيا، باستثناء التاج الذهبي الذي وضعه الملك على رأسه، واعلاه مرصع باللآلئ التي تشابه بعض الشيء صورة المجوس عند الرسامين كما ويحمل في اصابعه خاتمين جميلين من الماس. قدمنا له بعض الهدايا من بينها بعض الكحول الذي تذوقه كما ودخن الغليون الذي اعطيناه. وقد تقبل ايضا بسرور ورحابة صدر زوجي حمام ودجاجتين من الهند وكلبا انكليزيا ضخما صغير السن كان قد طلبه منا وايضا كلبة دانمركية، وكلها نادرة جدا في بلده.

ولن اتكلم عن الحفل الراقص الغريب جدا الذي اتحفونا به، ولا عن الوليمة التي تناولها بحضورنا مع عائلته و+كبار الحاشية والتي تكونت من قطع لحم البقر المشوي على الفحم بدون خبز ودون ان يسلخ جلده.

اما عن هذا الملك فانه طويل القامة جميل المحيا مع كونه شبه اسود وبدين يبلغ حوالي الاربعين من عمره. عرشه الملكي هو عبارة عن مقعد من خشب الابنوس مطعم ومشغول بالعاج. على كتفه ملاءة شفافة حريرية فاتحة اللون تتدلى من الكتف الى الخاصرة المقابلة، وعلى الجهة الثانية سلسلة فضية موضوعة بنفس الطريقة مشغولة بشكل فني علقت فيها سمكة فضية. وهناك علبة او صندوق فضي صغير معلق بتلك السلسلة مملوء، حسب ما قيل لنا، بأحرف ورسوم سحرية، ذات سلطان وقائي ضد شتى انواع الاخطار. اما باقي ثيابه فهي نوع من الرداء الحريري المطرز والمزين باللآلئ والمرجان. اما ساقاه وقداماه فحافيتان وله صندل موضوع بالقرب من عرشه.

واثناء المقابلة التي خصصها الملك لي، جلست على حصيرة من القصب مقابل الملك ورأيت اثنتين من نسائه تمران وكانتا بدينتين جدا كما من الطراز الذي يعجب الملك حسب ما قيل. اذ كان يهتم بزيادة وزنهن كلما دعت الحاجة. ويبلغ عددهن ثمانية عشر.

اقمنا الخيام والاكواخ لطاقمنا في موقع نظيف ومغلق محاط بسياج من النبات، مع نوبات حرس في الليل بعد النداء الى الانسحاب. كان هذا الاحتياط ضروريا خاصة بعدما ارسل لنا الملك اكثر من مائتي امرأة يحملن كل أنواع المرطبات والمأكولات المحلية. فحللن على مسافة نصف ربع الفرسخ من مخيمنا. وكن يلتقين رجالنا اثناء النهار وبدون أي تكلف، الى حد ان الهولنديين المرضى، ما ان شعروا بالشفاء حتى مهدوا للهرب. وبالفعل هناك اكثر من ثمانين شخصاً قد هربوا. كما سرت بعض

الاشاعات بانهم كانوا يلتحقون بسكان البلد لمغافلتنا والاستيلاء على مراكبنا مما اضطرنا إلى ان نكون على حذر ان نكن في البر او في البحر.

بصورة عامة لا يمكن ان نجد افضل من مأكولات هذا البلد بالرغم من ارتفاع الحرارة ومن مياه الشرب السيئة. وبناء على المعاهدة التي عقدناها مع الملك فقد اعطونا عجلا وزنه الف الى الف ومائتي ليبرة مقابل بندقية وستين ليبرة من الرز مقابل مقدار من البارود يزن ٢٨ اونسة. ولا حاجة لذكر لحوم الصيد والسمك والسلاحف البحرية والبرية، كل هذا كان متوفرا بكمية كبيرة ونوعية ممتازة. وعندما كنا على اهبة الاستعداد للرحيل بادرت النساء التي تكلمت عنهن باهدائنا كمية من بيض التماسيح التي تشبه الى حد كبير بيض الاوز والمتميزة بلون قشرتها الابيض الفاتح وبخشونتها. فاعلمنا الانكليز بانه يجب كسرها للتعرف عليها وانه اذا تناولها المرء فان لها عواقب نفسية غير محمودة، وهي لا تحتوي الا على البياض مع خط من الدم في وسطها.

تماثل للشفاء جميع المرضى تقريبا وبعد ان اكملنا التزود غادرنا ميناء مسالي في الثالث والعشرين من سبتمبر/ايلول واتجهنا نحو انجوان، حيث كان علينا ان نتوقف من اجل الماء.

موالي او مويلي جزيرة يبلغ محيطها ثلاثين فرسخا

عند مرورنا امام جزيرة مويلي بعث لنا حاكمها ببعض الفاكهة، ودعانا للنزول اليها معبرا عن تقديره واحترامه للفرنسيين، ووعدنا ان يوفر لنا كل ما نحتاج اليه بأسعار معقولة، ولما كانت مياهها لا تتمتع

بسمعة جيدة، تابعنا الابحار الى انجوان التي لا تبعد عن هذه الجزيرة الا ثمانية او تسعة فراسخ، فواجهتنا تيارات مضادة مدا وجزرا مما جعلنا نعبر تلك المسافة في مدة خمسة ايام.

انجوان

ارسينا في انجوان في الخامس من اكتوبر/ تشرين الاول. وفي الحال وصلت عدة مراكب اضافة الى سفينتنا يحملون كمية كبيرة من جوز الهند او النارجيل كما يسميه العرب ومن الموز او تين الهند، والبرتقال والليمون والكثير من السمك، كل ذلك للبيع. وذهبت لمقابلة الحاكم الذي يسكن في مدينة صغيرة على مقربة من الميناء، فيها مسجد وسكانها يتكلمون اللغة العربية، استمتعت عنده بشراب النارجيل الذي قدمه لي، ودخن هو من تبغنا الا انه رفض ان يشرب النبيذ الذي جلبته معي، وعبر عن استعداده لتوفير كل ما باستطاعته لتأمين حاجات طاقمنا.

اتى ملك انجوان بالخصوص من مسافة ثمانية فراسخ لاستقبالنا، فأحسنا استقباله بافضل ما كان بوسعنا على المركب، ولكنه لم يأكل من الدواجن وقد اراد ان يذبحها رجاله ويحضرونها، ولم يشرب خمرا البتة. طلب منا شراء البارود من أجل أن يشن حربا على جاره امير موالي الذي سررنا عنده جدا، اعتذرنا عن ذلك ووافقنا على اعطائه فقط بعض البنادق. والتقينا هناك رجلا عربيا طريف العبارة يدعى عبد الله، وكان يتكلم اللغة الفرنسية والانكليزية ويعمل مترجما، وقد اخطأنا اذ لم نصطحبه معنا، علما انه كان قدم لنا خدمات عديدة خلال فترة اقامتنا في شبه الجزيرة العربية.

وقبل ان نغادر انجوان كان يجب ان نقوم بالمقاييس الجيدة للوصول الى جزيرة سقطرة، بالرغم من ان الرياح الموسمية قد بدأت، (*الرياح الموسمية: نوع من الرياح الصابيات (النكيبات) او نظامية والتي تسود في فصول معينة، وهي مأخوذة من كلمة (موسم) في اللغة العربية. وقد كتب إ.هالي "تاريخ الصابيات...". انظر ايضا Les Transphilos d'Angleterre، 1686*) وكان رأي الربان ان الهدف اصبح مستحيلا بسبب حلول موسم الرياح فاقترحوا انه من الافضل البحث عن مكان ملائم لقضاء فصل الشتاء فيه اي الانتظار مدة الاشهر الستة حيث تهب فيها الرياح الموسمية في الشمال. اما انا فعلمت من ربابنة بعض المراكب الصغيرة المحلية كانت تسمى جونس تم تصنيعها دون استخدام المسامير او أي معدن اخر، انه طيلة القمر (الشهر) الجاري يمكن الذهاب بسهولة الى سقطرة. وهذا ما وطد عزمي على الموقف الاول الذي اتخذته رغم انه يخالف ما تقوله الصحف والتعليمات التي كانت لدينا. فبعد ان قمنا بتجهيز الماء الضروري، تركنا على البر كل الهولنديين الذين لم يرغبوا في مشاركة طاقمنا وغادرنا انجوان وسكان البلد اسفين لمغادرتنا.

في اليوم الثالث بعد ابحارنا من هذا الميناء فقدنا سفينتنا الشراعية التي كنا طلبنا تصنيعها في بريست ونقلناها قطعا مفكوكة ثم قمنا بتجميعها في مسالي. وقد اودى ذلك بحياة ستة رجال من اصل تسعة كانوا على متنها.

وفي صباح اليوم التالي، بين خط العرض الرابع والخامس باتجاه الشمال، شاهدنا البر على بعد اربعة فراسخ والساحل كان رمليا. وبعد ان تكلمنا مع السيد شامبلوريه لاقناعه بالاقتراب من هذا البر الذي كان سكانه يشيرون

لنا بالدخان. ونحن على علم بانه يوجد في ذلك الشاطئ من الذهب والعاج والعنبر رمادي اللون. فاتفقنا على الارساء معا في الميناء على مسافة عشرين ذراعاً وارسال سفينتين مسلحتين تحملان عينات من بضائعنا، وان اذهب بنفسي الى الميناء في مركب مسلح جيدا لأرى ما اذا كان باستطاعتنا التعامل مع هؤلاء السكان ام لا.

وبعد ان سرنا بعض الوقت في هذا الاتجاه، اذا بصديقنا يغير فجأة اتجاه مركبه ويتبع طريقا معاكسة بإيعاز من ربان السفينة الذي لم يكن يعرف جيدا هذا الشاطئ. فكان لابد لنا من اللحاق به. في البداية كان الطقس لطيفا جدا تلته رياح معاكسة. وفي النهاية اكتشفنا الأختين أي جزيرتين تبعدان خمسة أو ستة فراسخ عن سقطرة. فمررنا بين الجزيرتين إذ لم نقدر تجنب ذلك بسبب حركة المد والجزر الدافعة بشدة نحو الجنوب.

جزيرة سقطرة

في اليوم التالي أي في الثامن والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني، تجاوزنا رأس سقطرة، في الجهة المقابلة للتي تشير اليها خرائطنا بانها تصلح للارساء الممتاز على امتداد الشاطئ الجنوبي الشرقي من هذه الجزيرة. اما سفينتانا الأخريان "ديليجان" والأخرى التي أخذت من الهولنديين فلم يكن بوسعهما الا الارساء في مكانهما، فارسلتا في اليوم التالي الى الجزيرة رجالا لإجراء محادثات وهذا ما قمنا به نحن ايضا، فقد رأى رجالهم ورجالنا بعض العبيد المتوحشين والخائفين إلى حد انهم لم يتمكنوا البتة من الاقتراب منهم اذ كانوا يهربون الى الجبال بسرعة فائقة.

هذا ما جعلني اصمم على تسليح زورق وتزويده بالمؤونة الكافية لمدة اربعة ايام للدوران حول الجزيرة فاكتشف المدينة الرئيسية. لكنني عندما وصلت الى المكان الذي رست فيه مراكبنا وجدت الرياح وحركة المد والجزر معاكسة فاضطررت لقضاء الليلة في السفينة "ديليجان". وفي الصباح كنت مشمئزا من هذه العملية. فتحركنا للذهاب والالتحاق بالمركب الذي انطلقت منه لنرسو جميعا بعيدا عن الرأس الذي تكلمت عنه، في خليج جميل وآمن للغاية.

في اليوم التالي سلح كل منا قاربا لارساله الى قرية تقع على الشاطئ والمشار اليها في خرائطنا، واخبرنا رجالنا بعدها ان القرية استقبلتهم استقبالا حسنا واطعمتهم سمكا لذيذا.

وهكذا نزلنا الى البر في اليوم نفسه وقد علمنا انه يوجد وراء هذا الشاطئ الرملي مكان منخفض فيه شجر وقد نجد فيه ماء. لكن وقبل ان نصل الشاطئ بمسافة نصف فرسخ، حدث لنا حادث كاد يودي بحياتنا جميعا، وذلك بسبب خطأ ارتكبه الملاحون بان ربطوا حبال الاشرعة وانخدعوا بجمال الطقس وحينها فاجأنا اعصار قلب قاربنا رأسا على عقب، وملأه بالمياه حتى بدأ بالغرق وغمرتنا المياه حتى الازار، ثم اصبح الامر اكثر خطرا عندما هبت عاصفة اخرى وقلبت قاربنا واصبحنا نطلب النجاة بأنفسنا، فالبعض اسرع الى السباحة وصعد البعض على مجاديف القارب ومقاعده وأجزاء أخرى منه. ولحسن الحظ كان قاربنا الكبير المهيأ لحمل الماء قد رأى الحادث فأسرع بقوة نحونا وانقذنا جميعا واستعاد القارب الذي غرق.

وسرعان ما نسينا ذلك الرعب وانشغلنا بصيد السمك واتخاذ المقاييس اللازمة لتنفيذ مشروعي الأول الذي كان يتضمن الذهاب الى المدينة الرئيسية في الجزيرة لمقابلة حاكمها. قمت بتجهيز الزورق الكبير لتلك الغاية، وزودته بكل ما هو ضروري لهذه الرحلة.

وصلنا بعد وقت قصير الى القرية التي استقبلت سابقا رجالنا استقبالا حسنا، والتي تبعد سبعة فراسخ عن المكان الذي رست فيه مراكبنا، وتقع على بعد رمية بندقية من شاطئ البحر. سكانها عرب وفيها جامع. وقد التقيت اولا الشيخ (الشيخ: تعني حصرا في اللغة العربية العجوز. ويحمل هذا الاسم في الشرق رؤوساء الطوائف الدينية والعلمانية، كما ويعطى كلقب فخري الى العلماء والملوك.) او ممثل القرية الذي حياني تحية طويلة على الطريقة المتبعة في البلد، وطلب مني ان الحق به الى بيته حيث جلسنا على حصيرة، وبواسطة عربي كان يتقن اللغة البرتغالية اعلمته اني اريد رؤية الحاكم والمدينة التي يسكنها، فوافق الشيخ على طلبي وقدم الي جملا ورجالا يقودونني الى هناك، اذ يلزمنا يوم ونصف على الطريق.

لم يكن ذلك الحل هو الافضل برأيي، وفضلت ان اخذ زورقي. فبامكاني ان أعبر المسافة عن طريق البحر في صبيحة اليوم التالي. فطلبت نصب خيمة لقضاء الليلة على فرش جئت بها معي في الزورق. وبعد تقديم الشكر للشيخ انصرفنا برفقة بعض العرب الذين شاهدونا ونحن نتناول طعامنا ولكنهم رفضوا رفضا قاطعا ان يشاركونا الطعام او الشراب، شكرنا على دعوتنا بكل لطف. وقد قدموا لنا سمكا لذيذا بالرغم

من انه كان فقط مغليا بالماء المالح مع العسل والحشائش العطرية. وبعدها انصرف هؤلاء العرب مباشرة عندما رأوا انه قد حان الوقت كي نرتاح.

اتفقت مع الشيخ ان يعطيني دليلا للمكان مقابل ان اترك له احد عساكري كرهينة. وفي الصباح قبل بزوغ الفجر اتى الدليل فابحرنا . اما الضابط فذهب الى القرية حيث قضى نهاره بالنهو والرمي وصيد عدة انواع من الطرائد، والعرب حوله لا يكفون عن ابداء اعجابهم به.

وصلنا قبل الظهيرة امام المدينة العاصمة شمال الجزيرة. ارسلت في الحال رجلا الى البر، بينما لوح لنا رجال من البلد ان نذهب لنرسو في شاطئ فوق هذا. ويبدو ان الحاكم قد علم من السكان الذين رأوني حيث قضيت الليل اني آت لرؤيته. ذلك انه ارسل الى الشاطئ الذي نزلت فيه ضابطا يرافقه عشرون جنديا قاموا باستقبالي واصطحابي الى موقع غير بعيد حيث العشب الاخضر واشجار النخيل. وهناك وجدت الحاكم جالسا على سجادة كبيرة قرمزية اللون زينت حوافها بشرابات ذهبية. وقد اتكأ على وسائد.

فوضع يده على عمامته، ثم قدمها لي واجلسني على سجادته التي كان يجلس عليها وحده. اما حاشيته الصغيرة فكانت تجلس على حصر رقيقة. وبعد تبادل بعض الاحاديث التي كانت غير مفهومة بشكل كاف من كلا الطرفين، وقف الحاكم وفي الحال تحرك كل الجنود المسلحين الذين كانوا تحت شجر النخيل، بالسير في صفين، وانا والحاكم في الوسط، وذلك لايصالنا رسميا الى بيته. كان الجنود يرقصون بشكل مضحك ويتوزون

حول انفسهم وهم يرمون سيوفهم في الهواء بيد ويتلقونها باليد الاخرى، في حين ان ثلاث نسوة من ذوات اللون الاسمر القاتم كن يمشين في مقدمة العرض ويطلقن من حين الى حين اصوات الفرح، كانت تبدو لنا وكأنها صرخات حزن، بغض النظر عن قرع الطبول المرافقة لتلك الاصوات الغريبة.

وبعد وصولنا الى بيت الحاكم، ادخلني شقة شبه فارغة ما عدا الحصر التي جلسنا عليها، وبمساعدة ضابط عربي متقدم في السن تكلمنا في موضوع رحلتي، وقد تمنى الحاكم لو اننا ارسينا مراكبنا في مدينته وهو يوفر لنا كل الخدمات التي تتعلق به. قدمت له ثلاث بنادق وثلاثة مكاييل بارود. وبعدها بقليل مدوا امامنا شرشفا فوق الحصر عند اخر القاعة ووضعوا عليها طبقين من الخزف الصيني مملوئين بلحم الجدي والخروف وطبقين اخرين من الارز، وقد اعد كل ذلك حسب عادات البلد، وكان هذا الطعام مقبولا بالنسبة لنا. اما الحاكم فقد اعتذر عن تناول الطعام لانه كان صائما صيام رمضان. اما نحن فشربنا الخمر الذي حملته معي وبدونه لم يكن امامنا سوى الماء وهو ممتاز جدا في كل الجزيرة.

وبعد الطعام، اخبرني الحاكم ان هذه الجزيرة تابعة لمملكة فرتك الواقعة في العربية السعيدة، واضاف ان ملكها سيكون مسرورا بلقائنا، اذا نزلنا في مرافئه. وقد حملني من قبله رسالة له فقبلت ان احملها وارسلتها في الحال. وقد ابرز لي الحاكم ايضا عددا من الوثائق لقواد انكليزيين وهولنديين وبرتغاليين، وحتى وثيقة من فرنسي يدعى لوباهي وهو قبطان سفينة تحمل اسم "جورج، وهذه الوثائق تنضح بالمديح والثناء على

استقامته ونزاهته وعلى العون الذي نالوه منه. وقد سألني ان اكتب رسالة مشابهة فلم يسعني أن أرفض طلبه .

وفي النهاية وبعد ان عرض الحاكم خدماته مرارا وتكرارا، استأذنت بالانصراف واراد ان يصحبني الى خارج فناء البيت ثم اعطاني جنودا لمرافقتي حتى المكان الذي رست فيه سفينتي. وأخبرت ان الحاكم اهداني بقرتين وستة جداء. ورأيت بنفسي البقرتين مربوطتين عند أشجار النخيل، وعندما اراد العرب الاقتراب منهما لاخذهما، ذعرتا ولم يسيطروا عليهما الا بعد بعض العناء. انا لم اكن ارغب بتاتا ان احمل هذه الهدايا معي خوفا من مشاكل اعظم في المركب. وقد تصاعد هتاف السكان طويلا عند رحيلنا وعبروا لنا عن احترامهم الكبير. وفي المركب فقد كرم الصيادون ملاحينا عندما اطعموهم السمك الطازج الشهي، الا انهم رفضوا ان يأخذوا مالا مقابله واكتفوا بتناول خبزهم وشربوا بعض الكحول.

عدنا لنبيت في القرية التي انطلقنا منها صباحا. وبعد ان شكرنا الشيخ شكرا جزيلا على مساعدتنا بتقديمه لنا الدليل الذي كافأته على تعبه، ذهبنا للالتحاق بمراكبنا التي ما زالت تتزود بالماء والحطب والمؤونات الضرورية الاخرى.

ومن شدة سروري من هذا الحاكم، لم اتمالك نفسي من زيارته مرة اخرى بعد ايام قليلة، كي احمل له قماشا قرمزيا كان قد طلبه، ولاخذ كمية من الصبر المتوفر في هذه البلاد بكثرة. أبحرت إذاً على الزورق نفسه ووصلت في اليوم التالي في الساعة العاشرة الى ساحل المدينة العاصمة.

وجدت على الشاطئ خمسة عشر او ستة عشر جنديا اصطحبوني الى الحاكم الذي استقبلني احسن استقبال، وقد تكلمنا كثيرا عن التجارة وعن شراء الصبر الذي ادعى انه الافضل في شبه الجزيرة العربية. وتحفظ هذه البضاعة في اكياس من جلود الماعز ثم توضع تحت القبب ويوضع فوقها الرماد ليحفظها من الحرارة المرتفعة في هذا البلد، واخترنا منها الطازجة الاكثر تماسكا.

وامر الحاكم بنقل كل ما اشتريته الى سفينتي، وانا دفعت له ثمن القنطار الواحد الذي يزن ٩٥ ليبرة ثمانية قروش بالعملة المكسيكية، وهي العملة الاكثر اعتبارا. اما عملة البيرو فليس لها قيمة في كثير من الاماكن، منذ ان قام اليهود البرتغاليون بخداع التجار العرب بها، حسب ما قيل.

اما بيت الحاكم فقد امتلأ بجمهور غفير من التجار حيث حمل بعضهم البخور وفرو الزبادة، واخرون دم التنين والصبر، فاشترى تجارنا منهم بما يتناسب مع ما لديهم من النقود، ولم يلق النسيج الاحمر الذي حملناه اعجاب الحاكم الذي كان يريده اكثر قتامة وصباغا، وبالتالي كان علينا ارجاعه معنا وهذا ما لم يغضبني نظرا لما سيحدث فيما بعد.

وبعد ان شاهدنا المدينة التي تسمى تاماريين (تماريدا)، وهي على قدر ميسور من الجمال ببيوتها ذوات الشرفات والتي صعدت عليها كل النساء ليشاهدننا، وبعد ان استأذنا بالانصراف من الحاكم، ابحرنا تحملنا رياح عليلة اشتدت فيما بعد حتى بدا البحر هائجا وبدأت الامواج تدخل الى زورقنا. فعزمنا على استخدام قطع النسيج الأحمر لنضعه على الحواف لمنع دخول ماء الموج ونجحنا في ذلك. وهكذا عدنا بسرور سالمين على متن سفينتنا، وكانت الساعة تقارب الحادية عشر ليلا.

والان اقتربت ساعة رحيلنا ولم يبق امامنا الا ان نوجه جيدا دربنا. وقد استعلمت ملياً عن تجارة شبه الجزيرة العربية لدى ربابنة الجونس الذين كانوا في مرفأ تامارين (تماريدا). وهم اكدوا لي اني سأكون مسرورا جدا من عرب بلاد القهوة، فهم متواجدون بكثرة في عدن كما وفي المخاء وانهم سيستقبلوننا خير استقبال في كل مكان . وان ميناء عدن هو المناسب لتجارتنا وراحتنا، علما بان الماء فيه كان بلا منازع افضل من ماء المخاء.

وعلى هذا الاساس ناقشنا امر الاتجاه مباشرة الى عدن ام الذهاب الى ساحل اثيوبية للتزود بالماء قبل الدخول الى البحر حيث تقع المخاء. وكان رأيي ان نختار الطريق الاول لاننا كنا تمكنا من الوصول الى عدن في يومين رغم ان المسافة تبلغ مائة وخمسين فرسخا وذلك بفضل الرياح السائدة وقتها. لكن السيد شامبلوريه الذي كان يأمل وجود العنبر الرمادي في اثيوبية، آثر الذهاب في ذلك الاتجاه.

ساحل اثيوبية

تركنا اذن خليج سقطرة في العاشر من ديسمبر/ كانون الاول عام ١٧٠٨، في طريقنا الى اثيوبية. ومنذ اليوم الثاني شاهدنا جزيرتي Abdelcuria ابدلكوريا (عبد الكوري) وقد مررنا على بعد خمسة فراسخ منهما. وفي اليوم التالي مررنا على مسافة فرسخ واحد من شاطئ رأس جرداسوي Gardasui. وهو يتألف من سهل طوله خمسة وعشرون فرسخا تحيط به الجبال. ومن وقت الى اخر كنا نشاهد عبيدا يتمشون على الشاطئ.

في اليوم الثالث وجدنا قرية ونوعا من المدخل او مصب نهر. فارسل السيد شامبلوريه زورقاً مسلحا يرفع علما انكليزيا. وما كاد رجالنا

يقتربون من القرية، حتى خرج منها عدد كبير من العبيد السود المسلحين بالرماح والكثير من النساء يرمين رجالنا بالحجارة، مما اجبرهم على التراجع.

وفي صباح الغد ابحرت بنفسي على زورق مسلح واصطحبت معي قرصانا انكليزيا كان قد صعد معنا في مدغشقر وزنجيا كنا قد اخذناه معنا من ميناء انجوان، ظانين انه عربي. كنا نحاذي الساحل دائما، وكانت سفننا توازي الشاطئ في الخارج. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا كنا ازاء شاطئ واسع، شاهدنا الدخان يتصاعد من سفح احد الجبال، وحسبنا اننا سنجد سكانا، فاكتشفنا مغارة كانت قد حلت فيها الماشية واشعلت النيران في روث الحيوانات.

وبعد ذلك بقليل شاهدنا زورق صيد صغير، يرسو في طرف هذا الشاطئ، فارسلنا اليهم العبد الاسود ليتحدث اليهم، وبانتظار عودته، تسليت بان يلتقط لي البحارة اصدافا من الشاطئ لاتأمل تلك التي يتشكل بداخلها اللؤلؤ. وفجأة رأينا الزورق يرفع اشرعته ويولي هاربا. فصعدت مباشرة الى الزورق ولحقنا بهم بكل اشرعتنا. وكان زورقنا يغوص وتغمر المياه مقدمته بسبب السرعة التي انطلق بها. مما اضطرني الى شد الشراع الامامي. وبعدها بقليل استغل الزورق الصغير هذا الابطاء فتجاوز الرأس ووصل الى خليج صغير حيث غادره العبيد حاملين معهم الشراع المصنوع من الحصير والمجاديف. ووجدنا داخله شبكة كبيرة مليئة بالسمك وبعض ادوات الصيد.

النزول الى الشاطئ في اثيوبيا

امرت كل الركاب بالنزول من الزورق باستثناء القائد مع اربعة رجال لحراسته. وانا ترأست الفوج وبدأت بصعود مرتفع رخامي وعر ذي احجار مختلفة الالوان، كان العبيد قد فروا منه. ومن هناك شاهدنا سهلا فسيحا يبعد عن الجبال اكثر من فرسخين. ولمحت في الوقت نفسه بعض الممرات المرصوفة. فسار الانكليزي الذي يرافقنا مع جنديين مسلحين جيدا في الممر الأيمن، بينما اخذت انا الممر المباشر، لانه بدا لي انني ارى في هذا الاتجاه وعلى مسافة ربع فرسخ، تلا او هضبة قد تكون ملاذا للعبيد. وكان يرافقني ثلاثة رجال مسلحين ببنادق، ورجل يحمل راية بيضاء على رأس رمح قصير. وكانت الراية البيضاء رمزا للسلام واشارة الى اننا نطلب حاجة ما في كل مناطق الهند.

لم نكن الا على مرمى حجر من الهضبة واذا بي ارى رأس زنجي، سارعت في اللحظة نفسها الى اطلاق صفارة مما اجبره مع رفاقه السبعة على الظهور وقوفا وتقدمت حالا حاملا الراية وانا اشير لهم ان يتجهوا نحوي. الا انني عانيت من الصعود الى ذلك المرتفع حيث اصطف العبيد وقوفا يبعد احدهم عن الاخر خمس او ست خطوات.

وقد حمل العبد الذي كان على رأسهم في يده اليمنى سيفا جميلا مسندا اياه على ذراعه اليسرى، كما وحمل الذي كان في المؤخرة سيفا مشابها، بينما لم يكن الاخرون مسلحين. والجميع لم يكونوا يلبسون الا قماشا قطنيا بسيطا على شكل ازار يغطيهم. واذا بالعبد الانجواني الذي كنا ارسلناه الى الزورق واقفا معهم محايدا بعض الشيء. فدنوت من قائد الجماعة وبادرت الى تحيته قائلا: مرحبا (*وهي كلمة عربية يراد بها*

الترحيب من فعل رحب أي فتح وسهل الدرب). وهو مصطلح يدل على التحية المهذبة يستعمل كثيرا في افريقيا وشبه الجزيرة العربية فاجابني بذات الكلمة. وعدا هذا فبعد ان كلمته بالبرتغالية والاسبانية والانكليزية والفرنسية، بدا انه من المستحيل ان نتفاهم.

في هذا الوقت، وصل الانكليزي مع رجالنا المسلحين الى المكان ذاته، مما ارعب العبيد ففروا للحال بسرعة باتجاه السهل ليختبئوا تحت اشجار لم تكن بعيدة عنا كثيرا. عندئذ روى لنا عبدنا الانجواني ما حدث له في رحلته، وقال انه عندما وصل الى الزورق، لم يفكروا الا في الابحار والهرب، فاجبروه على الذهاب معهم، وانه لم يفلح في التفاهم معهم، ولا هو يفهم لغتهم الاثيوبية. ثم دلنا على مغارة موجودة تحت تلك الهضبة كان العبيد قد خبأوا فيها السمك. وفي الواقع وجدنا فيها ما يقارب الف سمكة سردين وثلاث سمكات طون مع الشباك وصحون خشبية وحاجيات منزلية اخرى، فامرت بأخذ نصف السردين والطون وتركت لهم في صحن قرشا ونصف القرش.

حاولت من جديد ارسال احد رجالنا الى اولئك العبيد وكان يتقن اللغة البرتغالية فلم يتمكن من استخلاص شيء منهم. فما بقي علينا الا ان نعود الى زورقنا حيث وجدنا بحارينا قد اعدوا السمك مع الملح الممتاز الذي وجدوه في ثنايا الصخور التي يتحطم عليها موج البحر. ولم يكن ينقصنا وقتها الا الحطب لشي السمك. فانفصل عنا ثمانية من رجالنا بحثا عن الحطب، لكنهم فوجئوا في طريقهم برجل مسلح برمح وترس من الجلد، وقد بدا بدوره مندهشا من رؤية رجال بيض. فقادوه الي على شاطئ البحر داخل مكان يشبه المغارة كنا آوينا اليه لاتقاء حرارة الشمس اللاهبة. فسلمنا على بعضنا بقبضة اليد وتبادلنا التحية بكلمة "مرحبا" كانت

هي جملة الحوار بيننا. قدمت له خمرا اسبانيا اعجبه ولاحظت انه كان هادئا جدا وان شيئا لم يثر دهشته، يأكل ويشرب معنا بطيب خاطر وكان يمسح يديه ويقلد كل حركاتنا عند تناول الطعام ثم دخن عدة مرات بالغليون من تبغنا ماركة فرجينيا وتتويجا لكل ذلك احتسى اخيرا كأسا من الكحول سحبه من امامي قبل ان يبتلعه.

طلبنا منه بواسطة الاشارات وعن طريق اطلاعه على النقود، الحصول على مؤونة من البلد، وخاصة العجول او الخرفان، ارينا صورتها على لوحة مطبوعة، وقد فهم جيدا كل هذه الاشياء، وافهمنا بدوره عن طريق اشارات ذكية وطريفة، انه سيحمل لنا في اليوم التالي في وقت محدد من ارتفاع الشمس، كل ما طلبناه من مكان في الجبل يقيم فيه، وقد دلنا عليه. وبعد ان تم ذلك اشار لنا انه بحاجة للنوم، ثم اخذ رمحه وترسه وانصرف.

خلال ذلك الوقت كان يساورني بعض القلق بالنسبة لموقعنا وبسبب الرياح القوية التي يحتمل انها ابعدتنا عن مراكبنا مما سيجعل الالتحاق بها شاقا في اليوم التالي. وقد اوشكت المؤونة ان تنفد في الزورق، مع العلم ان امامنا طريق يستغرق ثلاثة ايام من الشاطئ الاجرد الذي كنا فيه الى ساحل العربية السعيدة الواقع في الجهة المقابلة. ولهذا السبب وفي حوالي الساعة التاسعة مساء عندما هدأت الرياح، ابحرت مع رجالي، وطلبت من الطاقم ان يجذف، وقبل بزوغ الشمس بساعة تقريبا اكتشفنا النور على مركبنا الذي بقي ينتظرنا طوال الليل، وما لبثنا بعد قليل من الزمن ان صعدنا اليه.

تابعنا طريقنا على طول ساحل اثيوبيا، ونحن نبحث عن مكان ملائم للتزود بالماء والموؤنة اللازمة، واكتشفنا بعد يومين من البحث خليجا يمكن ان يوفر لنا شيئا ما، حاولنا الدخول اليه، لكن الرياح والامواج لم تسمح لنا بالاقتراب اكثر من فرسخين، فتابعنا الطريق نفسها، واكتشفنا اخيرا شاطئا كبيرا يبلغ طوله خمسة او ستة فراسخ وعرضه فرسخ واحد، وبعد ان ارسينا مراكبنا على عمق ثمانية عشر ذراعا وعلى بعد ثلاثة ارباع الفرسخ من الشاطئ.

وقفة اخرى على هذا الشاطئ

وحالا اخذت زورقا مسلحا، ونزلت الى الارض يصحبني تقريبا الافراد أنفسهم الذين كانوا معي في المرة السابقة. كان المكان جميلا جدا فدخلنا اولا الى سهل رائع امامنا ووجدنا في منتصفه تقريبا ممرات مرصوفة عليها اثر لحوافر جمال، فاقتفينا الاثر وشاهدنا بعد ان عبرنا حرشا صغيرا، خمسة او ستة عبيد، يتمشون على طول الشاطئ باتجاه زورقنا.

ولم يكن ليخطر في ذهني ابدا ان الاثني عشر بحارا الذين كان عليهم حراسة الزورق ، وقد القوه بمرساته على مرمى حجر من الشاطئ بسبب الصخور ، انهم سوف يغادرونه دون أي احتياط وينزلون الى الارض مجردي السلاح وقد تركنا الاسلحة عندهم من اجل امنهم.

فاقترب منهم العبيد وقد تسلح كل منهم بثلاثة او اربعة رماح وسلموا عليهم بقبضة اليد رمزا للصداقة. اما رجالنا فأروهم قطع النقود وحاولوا افهامهم بان مراكبنا بحاجة لبعض المنعشات. فالتفت العبيد من

الجهة التي رست فيها مراكبنا وشاهدوا الراية الانكليزية مرفوعة. فعبروا ببعض الاشارات عن استيائهم اما ان هذه الراية لم تعجبهم لحادث ما قد سبق ان جرى لهم مع الانكليز او ان وجود المراكب الكبيرة قد اخافهم. فتظاهر العبيد بالانسحاب. اما بحارونا المساكين فبدلا من ان يتركوهم يرحلون تبعوهم بكل سذاجة مستمرين دوما في طلباتهم ومبتعدين اكثر فاكثر عن شاطئ البحر.

واخيرا وعندما اصبحوا جميعا على مسافة لا بأس بها. رمى احد العبيد رمحا نفذ مباشرة في بطن احد بحارينا وهو يصرخ (آه!!). وفعل مثل ذلك العبيد الاخرون كل مع البحار الاقرب اليه. وفي لحظة واحدة وقع خمسة قتلى من رجالنا ولاذ الاخرون بالفرار نحو الزورق وقد مستهم عدة ضربات من الرماح. وقد مات منها احدهم بعد ستة ايام. اما اول الواصلين الى الزورق فقد اخذ بندقية وبدأ بالرمي سدى على العبيد وهم يسرقون القتلى. وكان ذلك كافيا لارغامهم على الفرار.

ولما بلغ نبأ هذا الحادث مراكبنا انشغل بالهم حول مصيري فأصعدوا في الحال خمسين رجلا مع ضباط في زوارق انقاذ للبحث عني. وانا كنت قد قطعت اكثر من فرسخ ونصف عبر السهل وكنت ما زلت قريبا من الجبال الا اني لم التقِ سوى امرأة وشابا يقودان اتانا محملا باغصان الاسل سرعان ما هربا. فركضت ورائهما محاولا ايقاف الشاب الذي شرع بتسلق الجبل وهو يرميني بالاحجار كلما اقتربنا منه. ولكن وبطلقة بارودة اطلقتها لاخافته فقط ولرؤية ردة فعله جعلته يختفي فجأة وهو يركض اسرع من الايل.

وعندها قررت ان اجمع فصيلتي وان اعود بعد تناول وجبة صغيرة من الطعام. وحين تابعنا السير اكتشفنا في السهل حشدا من الاشخاص يتجهون نحونا. في بادئ الامر حسبنا انهم اولئك العبيد المسلحون. فتأهبنا للدفاع عن انفسنا بكل عزم فتبين لنا انهم رجالنا وليسوا العبيد. فتلاقينا بعد برهة يسيرة من الزمن وعرفنا منهم خبر الحادث الفاجع الذي وقع على شاطئ البحر. ومروا بي في المكان الذي ما زال اولئك المساكين ممددين فيه على الرمل. فجهزت لدفنهم حيث كانوا بحضور الكهنة المرشدين الذين نزلوا لتلك الغاية. وقبل رحيلنا اقترح علي رجالنا ان يذهبوا للتفتيش عن العبيد للقضاء عليهم ما استطاعوا واحراق منازلهم والثأر منهم على موت بحارينا. لكني ارتأيت ان نكون اكثر حذرا وان نرحل دون التعرض للخطر في بلد غريب كهذا. وانهالت علي التهاني في المركب على نجاتي من الاخطار التي ظنوا اني تعرضت لها. كما واتى الينا ايضا ضباط من مركبين اخرين مؤكدين جميعا انه سيدوم طويلا ذكر اثيوبيا في اذهاننا.

الوصول الى عدن

وما ان حل صباح اليوم التالي حتى نشرنا الأشرعة وابحرت مراكبنا محاذية الساحل نفسه مسافة اثني عشر او خمسة عشر فرسخا. وعند الظهيرة بعد ان قسنا ارتفاع الشمس اتجهنا شرقا لاكتشاف رأس عدن. فلاح لنا هذا الرأس مع حلول اليوم التالي وقد بدا لنا عن بعد وكأنه مجموعة جزر وذلك لانه يتكون من عدة قمم جبلية. وفي اليوم الثالث كنا سعداء بالارساء في ميناء هو الافضل في العربية السعيدة كما وان مدينة عدن هي الاكثر شهرة في البلد.

الرسالة الثانية

وصف المدينة والميناء وقلاع عدن وما حدث فيها فيما يتعلق بالفرنسيين.

سيدي،

ما كدنا نرسو في ميناء عدن والراية الفرنسية مرفوعة حتى ارسل الحاكم مركبين يحملان كل انواع المرطبات وقد كلف احد ضباطه بتقديم مراسيم الشرف. ولم ننزل الى البر في ذلك اليوم لان مراكبنا كانت على مسافة اكثر من فرسخ من المدينة ومن ناحية اخرى لم نر من المناسب ان ندخل الى قلعة في بلاد ماتزال مجهولة لدينا.

ولكن ماكاد يحل اليوم التالي حتى ارسلنا بتهانينا الى الحاكم وقمنا باطلاق سبع طلقات مدفعية من كل مركب تحية له. ورد هو بالمثل من مدفع القلعة الذي يقوم بمراقبة المرسى الاقرب الى المدينة. ثم ارسل لنا بتهانيه من جديد ودعانا الى النزول. وكانت مراكب البلد تأتينا افواجا لتعرض علينا شتى انواع المرطبات وقد شعرنا من حينه ان العرب اناس طيبون وانهم متعودون اكثر مما كنا نظن على معاشرة الاجانب.

نزلت انا والسيد شامبلوريه يصحبنا ضباط من المراكب الثلاثة بعد وجبة الغداء. فوجدنا على الرصيف اناسا مسلحين ارسلوا ليصطحبونا الى باب المدينة المسمى عندهم بالباب البحري الرئيسي لاتجاهه نحو البحر وايضا بسبب ضخامته. كان يوجد امام الباب ثلة من الحرس. وقد لاحظت عند مرورنا بان الباب ثخين للغاية وهو مليء بالمسامير او بالاحرى بأوتاد من الحديد مشدودة من الخلف لمزيد من الامان بدسار معدني متناسب مع سائر الاجزاء.

دخلنا من هذا الباب الى مكان مقبب. وبعد ان مشينا خمس عشرة خطوة وجدنا صالة صغيرة مقببة هي ايضا وتنتهي على شكل زاوية. فهنا يوجد ضابط المراسم الذي يحمل لقب امير البحر وهو بالفعل قبطان الميناء الذي قام باستقبالنا بكل ادب واجلسنا على مقاعد ذات اشكال خاصة وسألنا من أين نحن قادمون وما هو هدف رحلتنا. كانت مدة المحادثة بيننا قصيرة لأنه كان قد اعلم الحاكم مسبقا بنزولنا وان الاوامر قد وصلت في الحال باصطحابنا اليه.

خرجنا اولا من باب حديدي يقع في طرف المكان ويقود الى باب اخر صنع من قضبان خشبية. فمشينا ما بين صفين من العساكر امامهم جنود ووراءهم ايضا عدد كبير منهم. وكان امير البحر على يسارنا الى ان وصلنا الى قصر الحاكم.

صعدنا درجا جميلا يؤدي الى الشقة الرئيسية فوجدنا الحاكم جالسا في صدر الصالة على منصة مغطاة بسجادة رائعة ومتكئا على وسادات من القماش المطرز بالذهب. وكانت حاشيته تجلس عن يمينه ويساره على سجادات اخرى. وقد غطت باقي الصالة حصائر ناعمة للغاية.

وصلنا الى منصة الحاكم دون ان نخلع احذيتنا وهذا عادة ممنوع لاي شخص كان. وبعد ان قدمنا له التحية. سلم الحاكم علينا بيده واشار لنا بالجلوس بواسطة رينيجا مترجمه الخاص البرتغالي الاصل.

بدأ الحديث بان طرح بعض الاسئلة العامة عن البلد الذي اتينا منه وعن رحلتنا. وقد ابدى رضاه عن ذلك وتعهد لنا بالحماية ضمن الاراضي الواقعة تحت سيادته. وقدمت لنا بعدها القهوة السلطانية. (القهوة السلطانية أي القهوة المحضرة على الطريقة السلطانية وسيأتي وصفها لاحقا في

المذكرة عن القهوة). وقد تكرم علينا الحاكم اذ ابلغنا انه اعطى الاوامر بتأمين السكن لنا. ونظرا إلى انه لا مجال للحديث عن الاعمال التجارية خلال اللقاء الاول، انسحبنا بعد ان قدمنا له الشكر العميق ووعدناه بزيارة اخرى في اليوم التالي.

ثم رافقنا الموكب نفسه الذي جئنا معه برفقة امير البحر الى بيته الخاص حيث امر الحاكم ان نقيم. فطلبنا احضار المؤونة وكل الحاجات الضرورية اليه من على زوارقنا. وبالرغم من اتساع البيت واناقته الخارجية، الا ان اثاثه لايتعدى الحصائر التي تستخدم كأسرة ومقاعد وموائد. وهذا ما فاجأنا ولربما كانت تلك هي عادات البلد.

وعند المساء احضروا لنا شموعا بدون شمعدانات. فلجأنا الى اختراع بديل ملائم لها. فتناولنا العشاء وامضينا بعدها ليلة سيئة.

وفي الصباح اتى امير البحرمضيفنا لمعرفة ما اذا كنا قد ارتحنا جيدا. اجبته ببعض الطرافة فتعجب من ذلك وتساءل عما يمكن ان يجري ليعكر نومنا. فانه كان قد امر من جهته، كما قال، بحراسة البيت تجنبا لحصول أي ضجيج. وطلبت ان يقال له باننا لسنا معتادين على النوم بهذا الشكل من الليونة. مما جعله يفتر عن ابتسامة صغيرة. ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء الناس يتميزون برزانتهم العالية فهم لايضحكون جهرا البتة.

ذهبنا بعدها للتنزه على الشاطئ منتظرين الوقت الملائم للقاء الحاكم من جديد. وقد ذهب الى مسكن نسائه. وتم استقبالنا الثاني فيه. وقد لاحظنا عند جدار الدرج عدة نوافذ تحتوي على مشربيات كانت النساء تنظر منها الينا عند مرورنا.

وقد ادخلونا الى شقة مجهزة ومزينة تقريبا مثل الشقة التي زرناها بالأمس. جلس الحاكم في الصدر ولم تكن حاشيته بنفس العدد. قدمنا له نسيجا قرمزيا وعددا من البنادق فتلقاها بكل سرور. ثم حرضنا على المتاجرة ضمن اراضيه مؤكدا لنا رعايته. وقد كلمنا بشكل خاص عن القهوة الممتازة المتوفرة وكذلك شتى البضائع المعروضة في المدينة الى جانب التسهيلات الكبيرة التي سنلاقيها.

ومن هناك ذهبنا لزيارة حاكم القلعة الذي يملك بيتا في المدينة. قدمنا له بندقيتين وشراشف. وهو بدوره قدم لنا القهوة السلطانية ومربيات من البلد. ثم وزعت الفاكهة على رجالنا. كان الحاكم لطيفا جدا معنا وقد دلت ملامحه على انه رجل كريم النسب ويتمتع بشهرة واسعة في كل البلاد.

وبعد وقت قصير من عودتنا الى منزلنا. جاء البانيان الرئيسيون الذين يعملون كسماسرة العربية السعيدة. ليزورونا ويعرضوا علينا خدماتهم. فطلبوا منا ان نحضر بضاعتنا الموجودة على مراكبنا او على الاقل عينات منها. ولم يكن لدينا الا بعض القضبان الحديدية وقليل من المرجان والقرمز. اما عملتنا الرئيسية فكانت القروش لشراء القهوة. وقد اكتفينا بان نعرض عليهم عينات من الاقمشة الموجودة على مركبنا الهولندي.

وبعد الظهر زرنا قبطان البانيان وطلبنا منه دون أي تكليف شرابا بدلا من القهوة السلطانية التي لم نعتد بعد على شربها. وبعدها ذهبنا لرؤية السوق حيث تباع كل انواع البضاعة. وهي معروضة في الحوانيت الصغيرة الموجودة على امتداد عدة شوارع صغيرة وهي منظمة بشكل يشبه تقريبا سوق سان جرمان. البانيان هم تجار هذا السوق ولا ترى هناك احدا من النساء ابدا.

في اليوم ذاته قام سيد المدينة بارسال احد رجاله يدعونا للذهاب اليه وقد التقينا بعدد منهم كانوا في استقبالنا عند باب بيته. ووقف اخرون في اعلى الدرج وطلبوا منا ان نخلع احذيتنا. وهذا ما رفضته رفضا قاطعا وطلبت من المترجم ان يبلغه بانه لن يكون لي شرف اللقاء به في مثل هذه الشروط.

عندئذ خرج هو نفسه الى باب الصالة ووضع يده على عمامته ثم على بطنه ومدها لي بادب مشيرا الي بالدخول وهو يرحب بي بكلمات عربية. ثم قادنا الى صدر الصالة وامرنا بالجلوس معه على نفس السدة المغطاة بالسجاد الرائع والوسادات الفخمة المطرزة على طريقة البلد المحلية.

وبعد تبادل بعض المجاملات من جديد، سألني هذا السيد فيما اذا كنا في رحلاتنا الطويلة نصطحب معنا اناسا متضلعين في الطب. طلب منا ذلك بسبب مرض احد اولاده. كان ضعيفا واهنا ولم يتمكن طبيب في البلد من علاجه . فرجاني رجاء حارا ان اعين له احد رجالنا. فأكدت له بان معنا لحسن الحظ رجلا يشهد له بالخبرة والمهارة في الطب. واني سأكون سعيدا بارساله له. فشكرني كثيرا على ذلك ثم شربنا ثانية القهوة السلطانية. واستأذنا منه في الذهاب لرؤية حمامات المدينة.

يجب الاعتراف بانه لا يمكن رؤية اجمل من حمامات هذه المدينة. فهي مكسوة كليا بالرخام واليشب. وسقوفها قبب رائعة ذات منافذ للضوء ومزينة من الداخل باروقة ترتكز على اعمدة جميلة. فالبناء باكمله مقسم الى غرف وحجرات وقاعات اخرى مقببة. تقود كلها الى صالة القبة الرئيسية. ولا حاجة للقيام هنا بوصف اكثر دقة وبالحديث عما يحصل في

مثل هذه الامكنة الاستجمامية. فهي تشبه الى حد ما ما نراه في المدن التركية الكبرى والتي تشير اليها بالكفاية روايات الرحالة الى المشرق.

ومنها كان علينا ان نمر في السوق العادية حيث وجدنا كميات كبيرة من اللحوم والاسماك وغيرها من البضائع الاخرى التي بدت لنا طيبة جدا. وهكذا وصلنا بعدها الى مكان اقامتنا.

وفي تلك الاثناء انتشرت شهرة طبيبنا المدعو لا لامباردبير وقد كان بالفعل ماهرا ومتمكنا في مهنة الطب اكثر من سواه من الاطباء وذلك بسبب ما قلت عنه عند السيد العربي الى درجة ان الحاكم نفسه ارسل في طلبه. وبالفعل كنا قد التقينا رجالا من طرف الحاكم ذهبوا لاحضار الطبيب اليه. فقد اراد استشارته حول وجع في المعدة وحول غثيان شديد كان يشكو منه. فما كان من طبيبنا الا ان رد له الامل بالشفاء ولذلك رجع الى المركب يبحث عن مستحضرات لتركيب الدواء ويحمله اليه. ثم التحق بنا وتناول العشاء معنا وقضى ليلته عندنا. اما نحن فلم نتمالك من الضحك بعض الشيء من الطبيب وفي الوقت نفسه من تهنئته على ممارساته الجديدة.

ثم انسحب كل منا الى فراشه. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل اذا بنا نستيقظ بذعر شديد بسبب ضجيج شديد سمعناه عند باب البيت. اناس يضربون الباب بعنف. وبعد ذلك بوقت قصير اتى من يقول لنا ان القارع كان امير البحر برفقة عدد من الجنود طلبا للدخول. دب الرعب في كل واحد منا ساريا الى الآخر. فقد ظننا علاج طبيبنا كان له اثر وخيم على الحاكم. وانهم اتوا يرموننا بالاهانة التي لحقت به.

وبالرغم من ان الساعة كانت غير ملائمة وان زيارة كهذه فاجأتني كثيرا فقد استمتعت بتضخيم الخوف لدى ذلك الضابط وانا اوهمه بان

الشعور ذاته ينتابني. عندها دخل امير البحر واتباعه وابلغنا بلهجة فظة بعض الشيء بان الحاكم يريدنا في الحال. اما الطبيب فكان بين الحي والميت لا يزال يسوق الحجج بلا توقف على حسن نوعية عقاقيره وجودتها يذكرها باسمائها واثرها دون ان يغفل العبارات التي قال انه اعتنى باعطائها باقصى ما يمكن تخيله من العناية.

وكنا في مثل تلك الحيرة الى ان وصلنا عند امير البحر الذي تركنا برهة نرتاح بانتظار ان يعلم الحاكم بوصولنا. فقدموا لنا الغلايين والتبغ ولكن احدا لم يرغب بالتدخين سواي انا مسايرة لامير البحر.

وبعد برهة وجيزة دخلنا امام الحاكم فتقدمت اولا وقدم لي يده كالمعتاد ثم اجلسونا في جو من الهدوء وقال لنا بصوت جليل بانه يرى جيدا باننا لا ننوي التجارة في مقاطعته مع العلم بانه كان يمكننا قضاء حوائجنا فيها ولكنه سوف يعطينا رسالة الى اخيه حاكم المخاء حيث سنلاقي ترحيبا حسنا وحيث سنجد من المصالح على الاقل مماثلة لما يوجد في الخليج الفارسي اذ في البدء كنا تظاهرنا بالذهاب الى هناك.

فشكرنا الحاكم شكرا جزيلا كما يليق. وابدينا له سرورنا الكبير بالرسالة التي وعدنا بها فهي الوحيدة التي بها يمكننا الوصول الى المخاء مع الامل بان نجد الاهتمام ذاته من قبل اخيه الحاكم. بعدها طلب الحاكم من الطبيب التقدم وسأله عن الاوقات التي سيتناول فيها الدواء وبعد سماع الجواب الكافي، استأذنا بالانصراف ونحن في غاية السرور.

عدنا ثانية الى امير البحر حيث كان الجميع يدخنون فرحين. ونحن نشعر بشيئ من الخجل من ذلك الذعر الذي اصابنا دون سبب. وعلمنا عندئذ ان الحاكم بعد ان عاد من بيت نسائه لم يستطع النوم. ولما ظن انه

لن يزعج رجال البحر المعتادين على السهر ارسل في طلبنا. ثم عدنا الى مكان اقامتنا لاخذ قسط من الراحة فيما تبقى من الليل. استيقظت باكرا جدا للنزهة ولرؤية خارج المدينة على مهل برفقة المترجم البرتغالي الذي شرح لي كل شيئ.

خط الطول ٧٠ وخط العرض ١٢ حسب لوائح ابي الفداء

تتربع هذه المدينة على سفح جبال عالية تحيط بها من كل الاطراف تقريبا. وعلى قممها خمس او ست قلاع مزودة باسوار واعمال اخرى عديدة في شعاب الجبال. وهناك قناة رائعة تقود الماء من هنا الى قناة او خزان مياه بني على بعد ربع فرسخ من المدينة. وهو يؤمن مياها عذبة لكل سكانها. ولا يوجد نبع اخر في عدن. ولا ادري على أي اساس يزعم جغرافيونا بان نهرا يجتاز هذه المدينة. (يقول ابو الفداء انه يوجد في عدن باب لجهة البر يسمى باب جسر الماء وان منه تصل الماء الحلوة الواردة من مكان آخر)

ويحيط بالموقع سور هو اليوم في حال سيئة لاسيما في الجهة المقابلة للبحر حيث يوجد بعض المصطبات المتواترة مع خمس اوست بطاريات مدافع من الحديد الصلب يطلق بعضها قنابل يبلغ وزنها ستين ليبرة. ويعتقد ان هذه المدفعية تركها سليمان الثاني بعد ان استولى على المدينة وفتح تقريبا كل البلاد وبعدها أجبر الاتراك على تركها للولاة العرب.

للوصول الى عدن عن طريق البر لا يوجد الا ممر واحد مستعمل تم انشاؤه على ارض ضيقة نسبيا يتجه نحو البحر ليصبح كأنه شبه

جزيرة. ويشرف على رأس الطريق حصن مراقبة يتمركز فيه حراس في عدة مواقع. وعلى مرمى طلقة مدفع هناك حصن اخر مدعم باربعين قطعة من المدافع الكبيرة الموزعة في عدة بطاريات. كما أن هناك ثكنة عسكرية. مع العلم انه من المستحيل النزول من هذه الجهة. وللذهاب من المدينة الى هذا الحصن الاخير هناك ايضا على الطريق العام حصن اخر مزود باثنتي عشرة قطعة مدفع وثكنة عسكرية اخرى.

اما من جهة البحر التي يسهل منها الوصول الى هذه المدينة فهناك خليج ينفتح بمقدار ثمانية او تسعة فراسخ. وكأنه ينقسم الى جزئين احدهما كبير جدا ويبعد كثيرا عن المدينة والاخر اصغر واقرب الى المدينة وهو ما يدعى بالميناء. يبلغ عرض الجزء الثاني فرسخا واحدا يبدأ من القلعة المشرفة عليه والمزودة بخمسين قطعة مدفع، وينتهي هذا القسم عند الحامية الابعد حيث توجد الحصون التي تكلمت عنها، وترسو السفن على عمق ثمانية عشر، وعشرين، واثنتين وعشرين ذراعا.

ولن اتحدث هنا عن داخل المدينة الممتد على مساحة لابأس بها، ولا تزال حتى الان ترى العديد من المنازل المكونة من طابقين، والمبنية بالتدرج على السفح، الا ان هناك ايضا كثير من الخراب، والخيم. ولذا نفهم بسهولة من خلال ما يبقى وبفضل الموقع الخاص ان عدن كانت في ما مضى مدينة مهمة وشهيرة وحصنا منيعا ومحطة رئيسية في العربية السعيدة. اما الارض المجاورة فهي جميلة للغاية رغم انها ضيقة تكسوها الاشجار الخضراء عند سفح الجبال.

وعند عودتي من نزهتي الطويلة وجدت عند باب البحر السيد شامبلوريه يدخن مع امير البحر. فقال لي بانه لما اراد الابحار جاءه رفض

الخروج من ذلك الباب. ولما أردت معرفة السبب تم ايقافي انا ايضا في المكان نفسه دون الحصول على أي تبرير لذلك. وازاء هذه المعاملة التي لم افهم منها شيئا اضطررت ان اطلب من احد ضباطنا الذي كان صدفة بالقرب منا ان يذهب في الحال ويأتي لنا بثلاثة زوارق تحمل جنودا مسلحين باسلحة مخفية لكي يشهروها بادنى اشارة مني ويطلقوا النار على فرقة الحرس لاخراجنا اذا لزم الامر وتسهيل صعودنا الى المركب. ولكن لشدة ما اصررنا قال لنا امير البحر اخيرا ان الحاكم كان قد اصدر ذلك الامر وانه بعد التداوي اراد بالضرورة ان يرانا من جديد. مما اضطرنا الى العودة الى المدينة لتناول الطعام في منزلنا.

وبعد مضي ساعتين جاءوا ليأخذونا بطلب من الحاكم. فانطلقنا مع حاشية كبيرة لان رجالنا كانوا قد اتوا مع زوارقهم. فبدأ الحاكم يذكر لنا كل محاسن المداوات التي تناولها ويشكر الشخص الذي قام بتركيبها. وبعدها عبر عن اسفه للموقف الذي اتخذناه مجددا لنا كل خدماته دون اهمال أي امر قد يشدنا الى البقاء في عدن. واخيرا بعد ان تقدمنا بمزيد الشكر والامتنان تركنا الحاكم ليستريح ويرسل بعد ذلك الرسالة التي وعد بها. كما وانه وعدنا بتقديم قبطان كنا قد طلبناه. الا ان القبطان لم يأت حسب الوعد لربما لان الحاكم ظن ان ذلك يكفي لتغيير قرارنا والبقاء.

وللحال ذهبت لاقف عند باب البحر ومعي اربعة او خمسة ضباط فلم اجد اية صعوبة للخروج مما اضطرني الى ارسال الزوارق من جديد مع الامر بتأهيب المراكب للابحار في صباح الغد وان يرسلوا لنا قوارب الى ذلك الباب لنركب مع البحر والذي كان قد هبط ولم نتمكن من الصعود الى المركب والمياه عالية. اما باقي النهار فقد قضيناه بالتنزه على الشاطئ

وبالحديث مع امير البحر الذي اهديته سيفا تركيا كان قد لفت انتباهه مع احد رجالنا وطلب شراءه منا.

وفي الغد ٢٧ ديسمبر/كانون الاول ١٧٠٨ ما كاد النور ان ينبثق فيه حتى اتونا برسالة حاكم عدن موجهة الى حاكم المخاء. وبعد ان قادنا أمير البحر الى الشاطئ، صعدنا الى القوارب للالتحاق بمراكبنا. وكانت اذ ذاك على بعد ميل ونصف من المدينة. وكانت هناك زوارق ومراكب محلية آتية من الخارج فلما رأونا نصعد انتابهم الخوف لرؤية تلك المراكب المجهولة وذهبوا للارساء على مقربة من الارض مع خطر الغرق.

اما نحن فكنا على اطلاع بان علينا الاحتياط من التيارات بصورة مبكرة وهذا ما فعلناه حال اقلاعنا من المرفأ ذلك ان هناك تيارات باتجاه رأس عدن قادرة على الدفع نحوه بسرعة كبيرة وبالفعل مهما كانت شدة حذرنا فاننا لم نعبر الا على بعد ربع ميل من الرأس الذي كان يبلغ ارتفاعه حوالي ثلث الميل. فهو مستقيم جدا وصعب التسلق وقد شاهدنا برجين فيهما عساكر الحراسة. وهما واضحا الرؤية من قصر لا يبعد اكثر من نصف الميل من المدينة. ومن القصر يمكن للسكان ان يروا الرايات والاشارات التي يتم تعليقها على البرجين للانذار عند اللزوم، وهذا الانذار يصل ايضا الى القلعة التي تطل على المناظر نفسها. ويقال ان النظر يمتد من الرأس على مدار عشرة اميال ويمكن رؤيته من البحر على بعد خمسة عشر او عشرين ميلا. اما الضفة فانها تبدو وكأنها جافة ورملية ولكن اذا تقدمت قليلا فستجد ان البلاد مليئة بالمراعي والرطوبة.

وقد اعطونا توصيات هامة بالاتجاه نحو الغرب لا بل باتجاه شمال غرب. الا ان قبطان السيد شامبلوريه الذي كان في المقدمة اصر على

الاتجاه غربا الجزء الرابع جنوب غرب وهكذا رأى عند الصباح قمة باب المندب ذلك الجبل الشهير عند مدخل البحر الاحمر من جهة افريقيا الا انه لم يعرفه وتابع في نفس الاتجاه زاعما ان لديه كل المعلومات وان خرائطه دقيقة للغاية. فشد الاشرعة ولم نتمكن من الاتصال به اذ كان على بعد ميلين منا. فما كان علينا الا ان نسير على طريقه الخاطئ وهكذا وجدنا انفسنا على مدخل خليج يبلغ عرضه ستة اميال وفي وسطه جزيرة.

اما السيد شامبلوريه فانه ابصر من موقعه عدة قوارب صيد قرب الساحل فارسل زورقه للاتصال بهم ولكن دون جدوى لان الرجال لم يجدوا وسيلة للتفاهم. اما نحن فبعد ان فحصنا الخليج الذي اشرت اليه والجزيرة في وسطه وقارناه بخرائطنا بدا لنا بوضوح اننا بالفعل عند مدخل البحر الاحمر بالاضافة الى تأكيدات القبطان بانه يقودنا اليه والى تقارير الافراد الذين ارسلناهم بالزورق رغم انهم لم يستطيعوا اكتشاف عمق مياه المدخل. الا ان ذلك كله يشبه بالكفاية ما كنا نبحث عنه.

تاغورا في افريقيا

واذ كانت الريح خفيفة اتفقنا على الدخول، وبعد عبور حوالي ميلين والمسبار دائما في ايدينا ابصرنا قاربا يقترب منا واكتشفنا في الوقت نفسه مدينة. اما رجال القارب فهم قائدان وبانيان وواحد وعشرون بحارا. وها هم يعلمونا بانها مدينة تاغورا في افريقيا من مملكة ادل وزيلا التابعة قديما للامبراطورية الاثيوبية وان الخليج يحمل الاسم نفسه. ثم تسلمت منهم رسالة من قبل ملكهم عن يد الحاكم ذلك انهم كانوا قد شاهدونا يوم البارحة. ولم يساورهم أي شك باننا عازمون على تعاطي بعض التجارة

في بلدهم او اقله على طلب بعض المرطبات. وبعدها قام اولئك الرجال بعرض مفصل لما لديهم من بضاعة ولكل الخدمات والتسهيلات التي سنجدها لديهم مشيدين ايضا بمحاسن حاكم تاغورا الذي عبر عن رغبته الحارة في رؤيتنا. وفي تلك الاثناء تمت ترجمة الرسالة العربية التي اشرت اليها كما يلي :

رسالة من السلطان محمد بن ديني

من مرفأ تاغيورا المحروسة أي تاغورا

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حق حمده

(تفرض الشريعة على المحمديين ان يبدأوا بكتابة اسم الله في مطلع رسائلهم وسائر مؤلفاتهم مع حمده والتسليم على الرسول محمد)

صلى الله على من لا رسول بعده وعلى آله وصحبه وسلم

كتب هذه الرسالة سيدنا السلطان محمد بن السلطان ديني حفظه الله امين

نعلمكم ايها القبطان ان لكم الامان والكفالة الكاملة في مرفأ تاغيورا لتأمين احتياجاتكم من ماء ومن حطب لانه من واجبنا ان نوفر لكم ذلك كما وسنقدم لكم دليلا يقودكم في المدينة التي ترغبون النزول فيها. واذا شئتم الذهاب الى مرفأ زيلا فانه اقرب اليكم بالنسبة لموقعكم الحالي. اننا اناس ذوو نوايا طيبة نؤمن بالله وبرسوله وشهادتنا الدينية هي : اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله. صلى الله عليه وسلم تسليما كبيرا الى يوم الدين والحمد

لله رب العالمين. لكم امان الله وامان السلطان محمد بن السلطان ديني والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

على الهامش يتضمن خاتم الملك الكلمات التالية : "المتوكل على ملك السماء، السلطان محمد بن ديني، سنة ١١١٧".

وذلك يعني سنة ١١١٧ حسب التقويم الهجري، الموافق سنة ١٧٠٥ ميلادية، وهي السنة التي توج فيها ملكا لادل، وقد تم في نفس السنة صك هذا الخاتم الملكي.

وفي الجهة المقابلة للخاتم نجد بعد الامضاء كلمة كاتمير (قطمير) وهو اسم الكلب الذي يرى المسلمون حسب القرآن الكريم انه حمى الاخوة النائمين مدة ثلاث مائة وتسعة اعوام. وهم يكتبون هذه الكلمة عادة على الرسائل المرسلة الى بلاد نائية، او التي ترسل عبر البحار وكأنها تشكل حماية او شبه حجاب او طلسم على سبيل الوقاية.

وفي هذه الظروف التي يضاف اليها ايضا جمال البلاد التي بدت لي لطيفة جدا وحيث انه لم يتبقَ لي سوى مسافة نصف ميل للوصول قررت ان اذهب للارساء بالقرب من تاغورا. الا اني بدافع من الحذر والامان وباقتراب حلول الليل، ارسلت قاربنا للاستطلاع مزودا بالرصاص وبمسبر. ولكم غمرتنا السعادة جميعا حين وجد رجالنا سريعا صفا من الصخور كان لا بد لنا من المرور عليه وهو على عمق ثلاثة باعات فقط مما اضطرنا ان نغير اتجاهنا بسرعة وان نعدل مشروعنا.

فأخذت معي القبطانين على ظهر الباخرة وصرفت البانيان في القارب مع توكيله بتقديم اعتذارنا الى الحاكم وارسلت معه اثنتي عشرة

علبة من تبغ فيرجينيا الممتاز وبارودتين ومعيارين من البارود مع الوعد بانني سأكافئ القبطانين اللذين ابقيتهما معي ليقودانا الى المخاء.

الا اني لم اغادر جون تاغورا الا مع بعض الاسف وذلك بسبب سحر تلك الطبيعة ونظرا للمعلومات المفيدة تجاريا التي كان من الممكن ان نحصل عليها في ذلك المكان مع العلم بان الموقع غير مذكور عند الرحالة ولا عند البحارة. الا ان الحفاظ على باخرتنا كان افضل من اية اعتبارات اخرى.

وكان علينا ان نخرج من نفس الطريق الذي دخلنا فيه. ولما اصبح النهار رأينا صاحبينا "الديليجان" الراسي عند مدخل الجون و"البريز" على مسافة اكثر من ميل منه. فابحرنا عندئذ للالتحاق بهما وفي الوقت نفسه ابصرت بعض الزبد باتجاه الريح امامنا وللحال ارسلت ضابطا في زورق لرؤية ما يمكن ان يكون ذلك ولفحص القناة والارساء في الموقع الاكثر عمقا مع وضع كلاب سوف نستعمله للخروج من هنا سالمين. وكنت قد اسمعته انه يجب تقييم ذلك الزبد. الا انه سرعان ما ابتعد عنه وفعل بعكس ما كنا نلوح له بالاشارات. وفي هذه الاثناء كان المركب يقودنا بشراعيه العاليين ومع الريح الخفيفة الاتية من الخلف من دون ان نشعر نحو حافة دكة صخرية خطيرة للغاية كان طرفها المقابل ينتج الزبد المذكور بسبب تصادم موج البحر الصاعد بها. فاضطررت حينئذ النزول الى غرفتي واذ كنت امسك قميصا شعرت فجأة بالمركب يهتز هزة كبيرة جعلني اوقن بانه قد اصطدم بالقعر. فصعدت على عجل نحو طرف السفينة الخلفي فوجدت الجميع في حالة من الاسى والكل ينوحون ويكادون يستسلمون الى اليأس بدلا من التفكير في الهرب من الخطر الداهم.

اما انا فأطلقت طلقة مدفع ونكست الراية للانذار وانزلت الاشرعة العالية ثم سلحت زورقنا بتجهيز كامل مع مرساة قذف وحبل غليظ وبقيادة ضابط ماهر اشرنا اليه برمي المرساة من جهة الامام عن يمين المركب لنتمكن من سحبه بعيدا عن دكة الصخور. اما الزورق المحمل والمرتبك هكذا فلم يكن يستطيع التحرك الا بواسطة اربعة مجاديف وعلى مهل. ولحسن الحظ عاد زورقنا قبل فوات الاوان فربطناه عند عقدة حبل الزورق للتمكن من جره. وبهذا الشكل تم الاسعاف على افضل ما كنا نتمناه.

وفي تلك الاثناء كان المركب يصادم طرف الصخرة بفعل موجة خفيفة كانت ترفعه ثم تهوي به نحو القعر بعد مرورها فتسبب صدمات يرتج منها كل البناء. فنزلت الى غرفة "سانت بارب" لأراقب دفة المركب بينما يُصدم في عقبه وانا اخشى ان تكون انكسرت بعد تحطم الاغلال ومقبض الدفة. كما ونظرت من خلال الكوة فاذا البحر هادئ وتمكنت من رؤية سطح الصخور التي كانت على عمق ١٤ قدما بينما ينبغي لمركبنا ما لا يقل عن ١٧ قدما. وكان القعر مكونا من الرمل والصخور مبعثرة فيه. وكان المركب قد لامسها واصطدم بها مما زعزع عددا من العوارض الخشبية التي رأيتها تطفو على وجه الماء.

الا انه بفضل السرعة الفائقة التي تحرك فيها رجال الزورق لرمي المرساة في الموقع الذي اشرنا به اليهم وبنشاط الطاقم باجمعه تمكنا من جر المركب بعيدا عن تلك الصخور مما جعل الجميع يطمئنون بعد ان اوشكوا على الهلاك. وبعدها ارسلت مباشرة قاربا ليلتقط العوارض الخشبية التي انفصلت عن المركب وذلك للتأكد من انها لم تنفصل فعلا من اسفل المركب فاتضح انها لم تكن الا مما يحمي الاسفل دون المس بالهيكل

نفسه. فارتحنا الى ذلك كل الارتياح وابتعد الخوف من الكارثة. ولم يبق لدينا سوى ضخ الماء فرأينا بسرور ان المركب لم تتسرب اليه الماء من الاسفل.

وفي تلك الاثناء وصلت زوارق المراكب الاخرى لنجدتنا بعد ان اصبحنا لا نحتاج اليها. وتبين للحال انه يجب علينا مغادرة ذلك الجون. فاشار علينا البحاران اللذان من تاغورا ان نعبر عن يسار الجزيرة التي في المدخل علما بانه لم يكن بوسعنا الارساء نظرا لسطحية المياه وعدم توفر العمق اللازم.

وهكذا رفعنا المرساة وابحرنا ناشرين اشرعتنا كلها لان الريح كانت شبه هادئة فتمكنا من الخروج وابتعدنا مسافة ميل واحد عن الشاطئ. ثم قضينا ليلة هادئة وفي صبيحة الغد هبت ريح خفيفة ساعدتنا على المسير بمحاذاة الشاطئ ودخلنا اخيرا عند المساء في مضيق البحر الاحمر الشهير او مضيق الخليج اليمني (العربي) او خليج مكة اذ ان الجغرافيين يطلقون عليه تلك الاسماء الثلاثة.

الدخول في مضيق البحر الاحمر

وقد يستحسن قبل المضي قدما في الحديث ان نذكر هنا بعبارات محدودة ما يمكن القول بدقة عالية حول موقع هذا الخليج وحول تكوين مشارفه. ان رأس كاردافوي الذي سبق لي ان تحدثت عنه، والتابع لمملكة آدل يقع مقابل رأس آخر اسمه رأس فرتاش (فرتك) يتبع مملكة تحمل اسم المضيق نفسه على سواحل العربية السعيدة. والمسافة بين الرأسين لا تزيد عن خمسين ميلا. اما المحيط المحصور بين الارضين على مسافة مائة وخمسين ميلا فانه في النهاية ضيق للغاية اذ ان ضفتيه تتقاربان احيانا

حتى لا يبقى بينهما اكثر من اربعة اميال بين الضفة والاخرى. فهذه الثغرة هي التي يسمونها عامة بداية البحر المضيق او بداية البحر الاحمر. وهذا البحر يصبح بعد ذلك عريضا ويمتد طوال عدة ضفاف لكل منها اسمها وذلك مسافة حوالي ٢٠٠ ميلا باتجاه جنوب شرق شمال غرب.

ولما كان الليل على وشك الهبوط وارتفاع المياه ينخفض اتجهنا نحو ارض رملية نرسو فيها عند مدخل المضيق والمياه فيها على عمق عشرة باعات فقط. وهناك شاهدنا من بعيد مسجدا واكواخا للصيادين والى جانبها عدة حزم من البضاعة مرمية على ضفاف المياه. فارسل السيد شامبلوريه اليهم قاربا الا انه لم يجد احدا يتحدث اليه.

جزيرة باب المندب

ومقابل ذلك المرسى تقع جزيرة باب المندب ويطلق الاسم نفسه على المضيق ذاته. ويتكون الاسم من ثلاث كلمات عربية : "باب ال مندب". وقد نقله الجغرافيون الى اللاتينية تحت اسم "اوسيوم لوكتوس" ما معناه "مضيق البكاء" دون ان يذكروا سبب تلك التسمية. وكانت الجزيرة تقع عن يميننا في حال الدخول اليها وهي تمتد تقريبا ميلين طولا واقل بعض الشيء عرضا. ويوجد فيها بعض النقاط الخضراء مع العلم بانها اجمالا اشبه بالصخرة الجرداء تلفحها الرياح والامواج وتحرقها اشعة الشمس الحارة. واجد ان الخوارط العادية تحدد موقعها خطأ في منتصف المضيق بدلا من ان توضع كليا في جهة شبه الجزيرة العربية واقرب ما يكون منها حتى ان ما بينها وبين الارض اليابسة ممر ضيق للغاية لا يمر منه الا القوارب الصغيرة.

وحال دخول المضيق على مسافة ادنى من موقع الجزيرة كان الارساء جيدا للغاية. وكان يوجد مرسى آخر اصغر من المرسى الذي نحن فيه عرضه ربع ميل تتوسطه اراض منخفضة حيث امكننا ان نرى بيوتا صغيرة سقوفها من الحصير. ورأينا هناك اناسا على الشاطئ وقاربين راسيين وزورقين غارقين. اذ هناك اعتاد القراصنة وقطاع الطريق ان يرسوا مراكبهم بمعزل عن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية.

وعلى قمة الجبل الذي يحمل هو ايضا اسم باب المندب (هذا الجبل هو بالتدقيق الذي اعطى اسمه للمضيق وللجزيرة أي اسم "باب المندب". ويسميه الجغرافي الشهير ابو الفداء "المندوب" كما يسمي المضيق "باب المندوب" ما معناه "باب الجبل المندوب" وتعني كلمة "مندب" مكانا للبكاء من العربية ندب أي بكى على الموتى اذ كان العرب قديما ينوحون على الذي يعبر ذلك المضيق الخطير للخوض في المحيط وكأنه فقد الحياة)، والذي يشكل سفحه حدا للمضيق من الجانب الافريقي ويقابله جبل من جانب ارض عدن في القارة الاسيوية. وكان فيه قديما حصن لحماية المرسى الذي تكلمت عنه. اما اليوم فهو بناء خرب مهجور. ويمكننا محاذاة الشاطئ ما طاب لنا فمررنا من جانبه على بعد ربع ميل فقط. وقد يكون من السهل التوقف لتحميل المرطبات والبخور والصمغ وبضائع اخرى.

والى هذا الموقع يتم ارسال من يسأل من المخاء عن امكانية الخروج بامان للمراكب العربية والهندية أي بتعبير آخر عن خلو المرسى من القراصنة الذين يختبئون فيه وعما اذا تمت معاينة بعضهم يبحرون خارج المرسى. فاذا خرجت البواخر من المضيق كان من عادتهم ان يسيروا بمحاذاة الشاطئ ورأس عدن الذي كان واضح الرؤية من اية جهة

اتيت بسبب ارتفاعه ويمكن مشاهدته على بعد خمسة عشر ميلا. كما انه موقع يخشاه كل بحاري اسية لتواجد القراصنة فيه.

وفي الصباح الباكر رفعنا المرساة وابحرنا مع رياح خفيفة والاشرعة الاربعة مرسلة وذهبنا باتجاه المخاء الواقعة في خليج البحر الاحمر على بعد عشرين ميلا من المضيق. ومن الجزيرة التي اوضحت موقعها الصحيح يمكننا رؤية الاراضي المنخفضة على مد البصر. وتلك الاراضي محفوفة بجبال عالية. واذ كنا نسير بسرعة يساعدنا في ذلك ارتفاع المد والارض بعيدة وراءنا ميلين أي اننا نسير وشاطئ الجزيرة العربية على يميننا حيث كنا نعاين من حين الى اخر بعض الاحراش.

واخيرا اذ كنا على بعد ستة اميال من المخاء شاهدنا المدينة في مظهرها الجميل وذلك بسبب ابراجها العالية وجوامعها البيضاء بكاملها من الخارج. فسررنا جدا من المنظر خصوصا وان المخاء هي المقصد من الرحلة والذي من اجله غادرنا اوروبا وغامرنا في البحار مدة تضاهي التسعة اشهر. فبدأنا نرى العديد من اشجار النخيل التي كانت تبدو وكأنها تمتد من ساحل البحر الى المدينة وضاحيتها ايضا مما يشكل منظرا جميلا رائعا.

وكانت الرياح لا تزال منعشة للغاية دون تقلبات الا ان قارب السيد شامبلوريه الذي كان يقوده الى المرسى كان قد اوشك ان يغرق اذ انه تلقى هزة عنيفة وضعته في عرض البحر وغمرته بالمياه مما ادى الى اخلائه وانقاذ الملاحين في زورق ارسلناه لتلك الغاية.

وفي تلك الاثناء طوينا شراعين منخفضين ووضعنا المركب باتجاه العرض للقيام بسبر الاعماق على بعد ميلين من الشاطئ وذلك خشية وجود

ارصفة من الصخر موجودة في تلك المياه. فوجد كل من مسافة ثمانية باعات من المياه. اما صديقنا فقد انتظر عودة الزورق وبعد ذلك بدلا من الالتحاق بنا ابقى اشرعته الاربعة مرفوعة وواصل السير على الطريق نفسه.

ومن جهتنا فكنا نتقدم والمسبر في يدنا نرميه من وقت الى اخر ونبتعد عن الارض كلما وجدنا المياه اقل عمقا من ثمانية باعات لنحصل على العمق اللازم في المجرى الاعتيادي : وكان ذلك ايضا للابتعاد عن رصيف رملي كبير نصادفه على بعد ميلين من مرفأ المخاء ويمتد حتى منتصف مدخله ويبلغ عرضه اكثر من ميلين أي من الشاطئ حتى القناة.

وكان قبطان "الديليجان" قد رأى بان يكون اول من يدخل المرفأ مغفلا بهذا الشكل كل التعليمات والمذاكرات. وكان قد تصرف هكذا قبل اربعة ايام ليكون اول من يدخل البحر الاحمر. وبهذا التصرف جعلنا نخطئ الدخول في المضيق اذ قادنا الى تاغورا. وبعدها حصل ما دفعه الى الندم عما فعل. ذلك ان مركبه اصطدم برصيف رملي كما ذكرت مما اضطره الى اطلاق طلقة مدفع وخفض الاشرعة العالية والمنخفضة لنتمكن من اعادة تجهيز المركب بعد وقت قصير واخيرا نكسنا الاعلام طلبا للنجدة.

وكنا اذ ذاك كما قلت انفا قريبا من هذا المركب أي على مسافة نصف ميل واحد ونحن لا نزال نسبر العمق ونحن قلقون لاننا لم نحصل في ذلك الموضع الا على ستة باعات من المياه مما جعلنا نبتعد في البحر. اما المركب "بريز" الذي كان يتبعنا والذي كان من صالحنا ان نحافظ عليه فكان يسير حسب الطريق الذي كنا نرسمه.

وما ان وجدنا القناة التي يبلغ عمقها ثمانية باعات حتى ارسينا فيها مع "البريز" وللحال انزلنا الزورق والقارب الى البحر وفيهما افضل بحارينا ليسارعوا الى مساعدة صاحبنا. الا ان الريح التي كانت قد اشتدت وجزر البحر المعاكس لم يتيحا لهم فرصة التدخل طيلة ساعة كاملة. ثم حين ارتفعت مياه البحر وعصفت الريح بشدة في الاشرعة تمكن المركب من الزحف على رصيف الرمل الذي كان ناعما وممزوجا بالطين لحسن الحظ وتخلص من الرمل كليا في النهاية.

الاقتراب من المخاء

ولما عاد قاربنا الذي لم يستطع ان يسير اكثر من ثلث المسافة نحو "الديليجان" بسبب ثقل وزنه وبسبب الطقس رجعنا الى السبر من جديد فوجدنا انفسنا على مسافة حوالي خمسة باعات من القعر وكان البحر على وشك ان يسير نحو الانخفاض. وللحال طلب قبطاننا ان نرفع المرساة وان نشد الاشرعة العليا وبعد برهة قصيرة من الزمن ذهبنا لنرسو قرب نقطة متقدمة من الشاطئ تشكل من جهة الشمال مساحة نصف مرفأ المخاء وعليها كان حصن مبني قديم . فوجدنا عمق المياه هناك ستة باعات مع امكانية ارساء افضل والقعر من الرمل الناعم الخالي تقريبا من الصخور.

الرسالة الثالثة

وصف مدينة المخاء ومرفأها والريف المحيط بها
وصف الجزيرة العربية بصورة عامة وما قام به الفرنسيون فيها إبان اقامتهم

سيدي،

لقد ارسينا في مرفأ المخاء في الثالث من كانون الثاني (جانفييه) عام ١٧٠٩. يتكون المرفأ من لساني ارض في الماء من كل جانب يشكلان شبه قوس وكانه نصف بدر كامل. وفي طرف كلا اللسانين نجد حصنا لحماية المدخل الذي يبلغ اتساعه ما يقارب الميل بين الحصن والاخر. وهذا ما يشكل موقع المرفأ الذي ترسو فيه المراكب الكبيرة ضرورة. اما باقي المرفأ فان عمق مياهه لا يكفي ولا ترسو فيه الا المراكب المتوسطة.

وما ان رسونا حتى ارتفعت من كلا الحصنين رايتان حمراوا اللون مثلثتا الشكل تحملان كلتاهما ثلاثة أهلة وشكل رسم متصالب (وهذا الشكل يدل على سيف صهر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يسمونه ذو الفقار وهو ذو حدين افلح في كثير من المعارك حسب قول المسلمين). كما وتبين لنا رغم كونه بعيدا عن المدينة علم الهولنديين الذي كان مدير الوكالة قد رفعه على الشرفة تكريما لوصولنا. وشاهدنا ايضا علما آخر شبيها باعلام الحصنين مرفوعا على مجموعة مدافع قريبا من منزل الحاكم.

ارسلنا التحية بسبع طلقات مدفع فاجابونا من المدينة بخمس طلقات أخر ، ثم سرعان ما ارسل الحاكم على احد زوارقه الذي كان يرفع راية وشعلة وفيه امير البحر او قبطان مرفأ المخاء. وكان القبطان يرتدي

لباسا اخضر مغبنا عريض الاكمام متدليا يشبه شكله ثوب الراهب وفوقه عباءة زيها يزي عباءة الرهبان ملونة بخطوط زاهرة. وجاء بصحبته البانيان بيرا الذي كان يتقن البرتغالية وكان يرتدي ثيابا بيضاء وحزاما جميلا مطرزا وعلى كتفه شالا من الحريرمتعدد الالوان. وايضا جاء رجل هولندي من الوكالة كان قد اقام في تركيا وكان يجيد الفرنسية. اما ثيابه فكانت كالزي التركي.

وبعد اتمام المراسيم الشكلية الاولى شرحت لامير البحر موضوع رحلتنا التي قمنا بها تحت اشراف ورعاية امبراطور فرنسا سيد امرنا والذي كان يرحب بما يقوم به افراد رعيته من توثيق العلاقات الودية مع رعايا ملك اليمن. فتقبل امير البحر هذه المقدمة برحابة صدر مؤكدا بان حاكم المخاء سوف يسر بقدومنا وبالنوايا الطيبة التي نكنها.

ثم قدمت لهم بعد ذلك بعض المشروبات الكحولية الحلوة الا انهم لم يقبلوا البتة ان يشربوا منها بل اكتفوا بتنشقها. اما البانيان بيرا فقد قدم لنا منزله. وبعدها ركبوا الزورق ومعهم واحد من ضباطنا قد سلمته رسالة مني للحاكم واخرى حملتها له من اخيه حاكم عدن. ثم اطلقت خمس طلقات مدفع تحية لهم. واذا بهم يرجعون بعد حين حاملين معهم بعض المرطبات وجوابا على رسالتي من الحاكم وايضا رسالتين من مرسلين ايطاليين من "الريكوليه" مكتوبتين باللاتينية. اما رسالة الحاكم بالعربية فاليكم ترجمتها :

"الى القبطان الفرنسي

"السيد دي لامرفيل هداه الله

"الحمد لمن يليق به الحمد

"صاحب المعالي والسمو والسعادة القبطان الفرنسي السيد دي لامرفيل وفقه الله كما يشاء وبارك في بضائعه وحاشيته وانعم عليه بالازدهار. لقد استلمنا رسالتكم بيد مبعوثكم والتي منها علمنا وصولكم السعيد الى مينائنا المبارك في المخاء الذي لا يزال مزدهرا بفضل الله وبعدالة امير المؤمنين المهدي لدين الله نصره الله (هناك في العربية 'امير المؤمنين' أي قائد المؤمنين او المسلمين' – وذلك يعني انه يقوم برئاسة دين الله. وملك اليمن يحمل اسماء والقاب الخلفاء نفسها والعبارات تنتهي كلها بكلمة الله).

"لقد تصرفتم حسب ما تقتضيه ارفع المبادئ واكمل التقاليد. غدا ان شاء الله العلي سوف نصعد اليكم ونأخذ المعلومات الوافية عن اعمالكم. كونوا مرتاحي البال في انفسكم ولا تقلقوا من شيء بشأن اعمالكم. هذا من فضل الله وحسبنا الله ونعم الوكيل.

"من حاكم ميناء المخاء، صالح بن علي حفظه الله."

وفي اليوم التالي ٤، صعد الينا الاعوان "ريكوليه" فطلبت اليهما ان يسعيا لنا بمقابلة اولى مع الحاكم. فقاما بالمهمة في اليوم نفسه. وفي الحقيقة فقد اعطانا موعدا في اليوم التالي رغبة منه بان يرتب لنا دخولا احتفاليا لكوننا اول ضباط فرنسيين يزورون حكومته. الا اننا طلبنا منه بالحاح بان يعفينا من ذلك الاحتفال وان يسمح لنا بان يكون لنا شرف

السلام عليه على الفور. وهكذا انزلنا قواربنا انا والسيد شامبلوريه ويرافقنا عدد من ضباطنا في ابهى حللهم ومعنا ايضا حاشية قليلة العدد. فنزلنا على رصيف المرفأ. وبعد ان عبرنا من ذلك الرصيف الى باب البحرية وجدنا اثني عشر حصانا مزينين اجمل زينة وما يقارب مائتي جندي وعلى رأسهم الطبالين. فاتى امير البحر لاستقبالنا عند ذلك الباب وقادنا الى قصر الحاكم الذي لا يبعد كثيرا عن المرفأ وتبعنا جمهور غفير من الناس.

وما كدنا ندخل الى ذلك القصر حتى نقل لنا المترجم الامر بان نخلع احذيتنا للانتقال الى قاعة الاستقبال. وذلك التشرف حظينا به في عدن من قبل. فكان ردي شبيها بما فعلت سابقا أي اني رفضت التنفيذ مستندا الى عاداتنا التي لا تفرض ذلك حتى للدخول الى امبراطورنا وهو اكبر ملك في اوروبا مضيفا باني مستعد ان ارجع ادراجي دون مقابلة الحاكم. وباشرت بالتحرك مرفقا القول بالعمل فنادوني من جديد ثم ادخلونا جميعا الى صالة كبيرة مفروشة بالسجاد ومرتبة حسب النمط التركي في المشرق أي فيها صوف او ما يشبه منصة مرتفعة في الصدر.

وكان الحاكم جالسا على سجادتين مزركشتين بالذهب ومتكئا على وسادات من النسيج نفسه. فاستقبلنا بكل ادب ومد يده لنا. فقمت من جهتي بالرد عليه بالثناء وفحوى قولي هو ان امبراطور بلادنا وهو الاكثر فخامة ومجدا من بين ملوك الغرب، الملك الطيب العادل دائما قد اذن لبعض رعاياه من شركة تتشرف بلقبها "الملكي" (المقصود هنا هو الشركة الفرنسية للهند الشرقية) بان يأتوا لاول مرة لتعاطي التجارة في مملكة اليمن وهو يكن كل التقدير والثناء لملكها. وفي حال تكريمنا فانه سوف يرسل بعثات اخرى من شأنها ان تواصل اعمال التجارة التي تعود بالخير لكلا الشعبين.

وقبل ان يبادلني الخطاب رفع الحاكم يده نحو جبينه ثم نحو صدره وهو ينحني وكأنه يعبر عن تقديره للأمير الكبير الذي ذكرته امامه. وبعدها بدأ بالكلام قائلا بانه سعيد جدا بوصولنا وانه سوف يبلغ سيده الملك مضيفا عنه انه امير ممتاز ذو شأن محسن ومحب للعدالة وهو يهتم بالخصوص بتقديم افضل معاملة للاوروبيين واننا سوف تتسنى لنا الفرصة بمعاينة تلك المعاملة الجيدة التي يوفرها لشعب كشعبنا. وبعد ذلك قدموا لنا القهوة وهكذا انتهت المقابلة الاولى.

ومن هناك انطلقنا الى عند البانيان بيرا الذي كان موكلا بالترجمة ومسؤولا عن بريد الاوروبيين. وتسلمنا منازلنا الى حين. وفي الغد جاء رئيس الوكالة الهولندية لمقابلتنا ودعانا الى الطعام في بيته. فذهبنا بعد ان زرناه ردا على زيارته فرحب بنا وقدم لنا مائدة من افخر الموائد. اما الوكالة فهي قائمة لان الهولنديين يرسلون كل عام الى المخاء سفينة محملة بسبعمائة برميل من الباتافيا فترجع محملة بالقهوة وببضائع اخرى من الجزيرة العربية تنقل اولا بالبر الى هذا المرفأ حيث توضع في المخازن العامة والمستودعات التابعة للوكالةبانتظار ان تنقل الى اوروبا او الى مكان اخر في الهند نفسها.

وبعد بضعة ايام طرح موضوع الحديث في ما يخص الاعمال واتفقنا مع الحاكم حول تجارتنا التي ستضطرنا إلى الإقامة مدة طويلة تحت حكمه. وهذا نص الاتفاقية التي ابرمناها في تلك المناسبة والتي طلب مني الحاكم ان ارسلها كما يجب بعد ان تم الاتفاق من كلا الطرفين على كل الشروط.

إبرام اتفاقية بين حاكم المخاء وبين قباطنة البواخر الفرنسية في ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٧٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
صالح بن علي حفظه الله

هنا خاتم الحاكم

الحمد لله الذي جعل فاتحة خطابه للناس بحمده هاديا لهم ان يدخلوا من باب الحمد هذا قبل الشروع باي عمل يعملونه وشكرا له على عظيم فضله تبارك اسمه وعلى صدق وعوده وسمو كلامه والصلاة والسلام على الانبياء الذين اقاموا الميثاق حين هدوا امته الى الصراط المستقيم. اما بعد

فاننا نعلن انه في عام ١١٢٠ تحت حكم سيدنا امير المؤمنين وسيد المسلمين (اي امام دين الله رب العالمين) المهدي لدين الله رب العالمين، حفظه الله، وصل الى هذا الميناء المزدهر بحسن قيادة فخامته، ثلاث سفن تابعة للامبراطورية الفرنسية، حسب تصريح قباطنة تلك السفن المشاهير. وطلب منا هؤلاء ان نوجه لهم كتابا يبقى بين ايديهم يشهد انهم قد نالوا منا الثقة ومن جهتهم يتعهدون باحترام الشروط المفروضة عليهم فيه.

اولا – يحق لهم ممارسة دينهم الذي يعتقدون به في الحياة وحتى الممات. وذلك ما لا يمكن رفضه كما هو العرف هنا

ثانيا – يحق لزوارقهم ان ترسو او ان تبحر من شروق الشمس الى غروبها الا انه لا يحق لرجالهم قضاء الليل الا في البواخر او في داكا كما يحق لرجالهم النزول من السفن والصعود اليها ما عدا في اوقات المد الكبرى التي تمنعهم عن العمل ولا يحق لهم النزول الا بعد الاستئذان.

ثالثا – يحق لهم ان يرفعوا رايتهم على البيت الذي ينزلون فيه

رابعا – فيما يتعلق بالبضائع التي ينزلونها عليهم ان يضعوها عند باب الصرفة الى ان يتم اعلام الكتاب. ومن باب الصرفة يمكن نقلها الى بيوتهم. ويتم فتحها حسب ما هي العادة بالنسبة للاجانب.

خامسا – اما في ما يخص الجمارك فيجب دفع ثلاثة في المائة ولا تدفع الجمارك الا على البضائع التي يتم بيعها ولا يفترض على البضاعة الواردة من عين المال

سادسا – اذا احتاجوا الى زوارق (زوارق الحكومة سعتها ١٤ برميلا) من بيت المال يدفعون مقابل الارساء قرشين ومقابل الابحار قرشين ايضا. ومقابل الزوارق الصغيرة (وتبلغ سعتها ٧ براميل) قرشا واحدا

سابعا – وعندما يطأون اليابسة يجب على كل فرد ان يدفع ما هو مفروض على امثاله كما ذكرنا سابقا.

ثامنا ــ اذا حصل ان احد سكان المخاء شتم احد هؤلاء الرجال فان علينا نحن ان نعاقبه حسب القانون

تاسعا ــ تسجل البضائع على حساب السمسار اذا تم بيعها بحضوره وبعلم منه وعلينا نحن ان نحاكم الذين يتمردون عليهم او الذين يعلنون افلاسهم او يهربون منهم جزءاً من البضائع التي قد يبيعونها بانفسهم دون وسيط.

عاشرا ــ ونظرا لكون اصحاب هذه السفن الثلاث الذين قد جاؤوا مباشرة من بلادهم وهم بالتحديد القبطان السيد دي لامرفيل والقبطان السيد دي شامبلوريه لوبرون ينزلون ضيوفا في ارض امير المؤمنين وزعيم المسلمين، خليفة سيد الانبياء (اي نائب او ممثل نبيهم محمد دينا ودنيا)، المهدي لدين الله رب العالمين حفظه الله وانهم توسلوا الينا ببعض التكريم الذي يشرفهم، فاننا نهبهم ربع الجمرك المتوجب على البضائع المحملة على سفنهم والتي ينزلون بها ابان هذه السنة فقط. وفي حين تم تحرير هذا الكتاب صرحوا لنا انهم اخبروا رجال بلادهم بانهم حصلوا على العفو لهذه السنة من جمارك البضائع النازلة من السفن او الصاعدة اليها. ولهذا فقد عممنا القرار على البضائع النازلة من السفن او الصاعدة اليها خلال هذه السنة فقط باعتبارهم ضيوفا على الملك وبشرط ان يتجنبوا التعدي على اية سفينة ترسو في هذا الميناء السعيد حليفة كانت ام عدوة والا يهاجموا

الجماعات التي اعتادت ان ترفع رايتها على بيوتها والا يرتكب رجالهم اية اهانة تجاه مدير مصلحة البحر في الداكي وفي موقع تحضير مياه الدواكي الاخرى. اول من يصل يبدأ بتحضير الماء طبعا بواسطة اداة التقدير. ولا شك ان القاعدة في ما يخص هذه الامور معروفة. كما وعليهم محاكمة كل من رجالهم الذين يشتمون شخصا ما. واذا صدف ان التقت سفنهم في مرسى المخاء بسفن تابعة لدول اخرى فلا يحق لاحد ان يشتم الاخر علما بان المرسى مكان مقدس في امان الله واامير المؤمنين حفظه الله ولهذا السبب يجب عليهم ان يمتنعوا عن ذلك مما يزيدهم شرفا. واخيرا حين يغادرون يجب عليهم ان يرفعوا الرايات ترفرف مع رنين الابواق وان يسمعوا دوي الاسلحة كما جرت العادة لدى سائرالامم. واذا هرب احد رجالهم الى البر نرده لهم واذا أراد احدهم ان ينقلب عن دينه فلن نستقبله عندنا ما لم يحصل على موافقة القباطنة اما اذا شاء احد المسلمين ان يعمل على سفنهم فعليهم ان يرجعوه بكل امان.

تحريرا في ٣٠ ذي القعدة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ١٦ كانون الثاني (جانفييه) ١٧٠٩.

نحن مدير الشركة الملكية الفرنسية، نعد السيد الشيخ صالح الحريبي، حاكم مدينة المخاء هذه بان سفننا الثلاث الراسية هنا لن تقوم بشتم او اهانة كل الذين هم اصدقاء هذا البحر الاحمر اذ نعتبره حليفا لنا وصديقا

امينا يلزمنا ان ندافع عنه كما يلتزم هو بالدفاع عنا في أي من الاحوال.

تحريرا مع ختمنا وختم شاراتنا ــ المخاء في ١٦ كانون الثاني (جانفييه) ١٧٠٩.

قبل التوقيع على هذه الاتفاقية وبعده كان الحاكم قد احسن استقبالي وشرفني بما بادلني من الثقة الا انه كان يجب علينا انا والسيد دوشامبلوريه اذا اردنا الرجوع الى سفننا ان نستأذنه او اقله ان نعلمه بذلك كما هي العادة في هذا البلد تجاه الاجانب وذلك حرصا على تحصيل حقوق المغادرة التي لا يتم دفعها الا حين تزمع الباخرة على ترك المرسى وحرصا على فرض تسديد الديون المستحقة في البلاد.

وان سلطان هذا الحاكم يسود في امكنة شتى على سبعة حكام او حكام بالنيابة آخرين سيادة مطلقة. وهو في غاية السؤدد والغنى اذ يتعاطى التجارة بكثرة ويدفع لامير اليمن ثلاثين الف قرشا يجمعها من الشعب كما يفعل الباشاوات في تركيا.

عدا هذا فان مدينة المخاء (كتاب بطليموس عن بلاد العرب، ترجمة خوان غرافيو انجلو يشير الى ميناء المخاء في العربية السعيدة في حضرموت الذي يقع عند خط الطول ٣٠،٨٨ وخط العرض ١٤،- كما ويشير الى مدينة اخرى اسمها المخاء تقع في العربية البتراء عند خط الطول ٥٠،٦٧ وخط العرض ١٠،٣٠) لا تساوي مدينة عدن في الاهمية الا انها تعاطت وانفتحت على التجارة مما اضعف بشكل ملموس نشاط التجارة في عدن منذ زمن غير بعيد ويبلغ عدد سكانها عشرة الاف نسمة معظمهم من المسلمين وقليل من الارمن ومن اليهود الفقراء يقيمون في

حي منفصل لا بل في مكان خارج المدينة لا يستحق اسم الضاحية. السكان كلهم سمر متينو القامة. وتحيط بالمدينة اسوار قديمة العهد نصفها من الحجر ونصفها الآخر من الطين الممزوج بالتبن ولها اربعة ابواب دون خندق امامها وعدة ابراج بعضها مسلح بمدفع.

ويقيم في تلك الابراج جنود يخرجون في دوريات ابان الليل وابان النهار يقفون عند الميناء وفي السوق منعا للشغب والنصب. فالبلاد حريصة على تأمين السلامة العامة وعلى تكوين قوى امن جيدة : يأتون بالمذنب امام الحاكم واستنادا الى تقرير ضابط كهل يقود الحرس والحاكم يأمر بمعاقبته.

وكل هؤلاء الجنود البالغ عددهم ٥٠٠ او ٦٠٠ فرداً يتجمعون كل يوم من الساعة الثانية عشرة الى الثانية بعد الظهر في الساحة الكبرى ليواكبوا الحاكم الى المسجد حيث يأتي محفوفا بحاشية كبيرة مع اولاده وكل من حوله من الوجهاء راكبين الخيل وامامهم اعلام الملك مرفوعة الى جانب علمي النبي وعلي مع ضرب الصنوج. وحين الخروج من المسجد يطلق المشاة طلقة واحدة غير فارغة. مما اضطر السلطان يوما اذ كان مارا ورآني واقفا على شرفة منزلي ان يرسل نحوي احد رجاله يدعوني من قبله ان اتوارى لئلا يحصل لي اذى.

باستثناء عدد يسير من العامة لا تظهر النساء ابدا ابان النهار في طرقات المخاء وعند المساء يكون لهن بعض الحرية لتبادل الزيارات وبهذا الشكل التقينا بعض المرات بنساء الحاكم في طريقهن الى احد البيوت يسرن على ضوء فانوس واحد يحمله عبد ويتبعهن جمع من النساء. فعندما يصادفن رجالا في طريقهن يتجمعن كلهن للحال من جانب واحد قرب البيوت ليفسحن لهم المجال بالمرور وهن صامتات محتشمات.

اما لباسهن فهو تقريبا نفس لباس كل نساء الشرق عامة كما وصفه الرحالة. فهن يضعن فوق ثيابهن سترة كبيرة من القماش الناعم الملون تغطي وجوههن دون ان تمنعهن من النظر من خلالها كما وتضعن احذية صغيرة من الجلد المشغول. وتجد بين ذوي المناصب فتيات فاتنات لا يزيد سمارهن عن الاسبانيات وفي سيماهن من الرقة والجمال ما قد يثير المشاعر ويحرك الاهواء. ويمكن التصور انهن لا يجفلن خجلا ولا يبقين دون احساس بعد الذي جرى لنا في المخاء. وهذا الاستطراد، اذا صح التعبير لن يكون طويلا.

بعد ان اقمت مدة في بيت البانيان بيراء، استأجرت منزلا في المدينة حيث كان يجاورني سيد عربي شاب كان ابوه قد قام بعدة بعثات الى ملك اليمن. وكان الفاصل بين البيتين فسحة لا غير اذ ان كلا البيتين يمتلكهما شخص واحد يمارس التجارة بالجملة واصله من سوارتيه. وكانت كل نوافذ ذلك البيت مجهزة بالمشربيات يمكن فتحها حسب عادات البلاد بواسطة دفعها نحو الخارج او بارزة عن الحائط. وعند تلك النوافذ كانت النساء تأتي لتجلس عند المساء وكأنهن فوق نوع من الشرفة لاستنشاق الهواء وهن جالسات على طنافس لتعاطي بعض اعمال المنزل او لقراءة الروايات.

في بادئ الامر كانت السيدات تتخبأن بكل عناية ولا يفتحن المشربية البتة. لكن حين رغب سبعة او ثمانية من رجالنا المتطوعين وهم شباب من عائلات مرموقة الذين اصعدتهم معي على سفينتي واسكنتهم في المنزل نفسه رغبة مني في الامان، حين رغبوا ان يتسلوا عند المساء في الباحة بعد انسحاب الجميع واغلاق الباب الاول خارجا وكان يتم ذلك

بصورة مبكرة نوعا ما. فحينها كنت لا تسمع الا الرقص والغناء باستمرار وفي غالب الاحيان تحت نافذة السيدات. وكان ذلك كافيا للتآنس معهن.

في البداية انفتحت المشربية بما يكفي لمشاهدة الرقص وبعدها اصبحت مفتوحة بكاملها : وبعد حين سمعت تلك النساء يغنين اللحن نفسه، وللاشارة ان الامر اعجبهن كنا يصفقن غالبا بالايادي وفي النهاية جعلن يرقصن يرافقهن ايقاع الطبلة واغنية جميلة للغاية. وهكذا تعودن شيئا فشيئا على رؤية هؤلاء الاجانب وعلى رؤيتهم لهن فانفتحت المشربيات بمصراعيها فادى ذلك الى اننا من شرفتنا الواقعة ادنى من بيتهن بارتفاع طابق كنا نرى كل ما يحدث داخل شقتهن وهي على المستوى نفسه.

وكنت قد جهزت على الشرفة غرفة صغيرة تغطيها بعض الحصائر للتبرد في المنزل حين يشتد الحر. ومن هناك لم يكن من الصعب علي ان ارى بانهن كن اربع نساء اظن ان الكبيرة بينهن هي ربة المنزل ولم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها قامتها جذابة رغم امتلاء بطنها اما الشابات الثلاث الاخر فكن اقل سنا صغيرتهن قد يتراوح عمرها بين الرابعة عشرة او الخامسة عشرة وكلهن جميلات الا ان احداهن كانت تفوقهن حسنا وجمالا. وهي التي كانت تظهر على النافذة اكثر من رفيقاتها وتتفنن بشتى الاساليب في ان تلفت الانتباه. فظهرت يوما وقد زينت شعرها المجعد بذيول ولبست رداء من الحرير متوهجا بلونه الاحمر الناري تلتفت ذات اليمين وذات اليسار عسى ان يلاحظها احد. وبعد برهة يسيرة ذهبت لترتدي ثيابا اخرى جاءت لتعرضها بالطريقة نفسها. وتكررت العملية خمس مرات عرضت فيها اجمل ما ترتدي وفي المرة الاخيرة امسكت باحد الذيول في رأسها وحركته بيدها في اتجاهي ثم

اشارت الي بعدة اشارات قد يستفاد منها انها تحبها وتريد الحصول على مثلها. ثم مسحت ذراعيها بيدها وابدتهما حتى مفصل المرفق مضيفة باصابعها الكثير من اشارات اللطف التي تعبر في هذا البلد على مدى الاعتبار والتقدير والمودة. وفي مشهد اخير ذهبت تلك السيدة الشابة لترتدي ثوبها الاول الناري اللون وعادت الى الظهور عند النافذة نفسها، لعوبة دائما وفرحة، ومعها طفلة في السادسة او السابعة من عمرها.

وكنت حينها منطرحا على سرير للراحة وانا اعاني من وجع ينال غالبا الاجانب حين تأتي موجة عالية من الحرارة. الا اني اردت ان اتجاوب مع كل تلك الملاطفات فاستحضرت علبة من الصين مملوءة بالطرائف فاخرجت منها بعض الشرائط والمراوح واريتها اياها ؛ وكان ذلك سهلا علي نظرا لقرب المسافة ولشكل المنزلين.

فاهتزت فرحا وارسلت للحال البنت الصغيرة برفقة عبدٍ كان عليهما فقط ان يعبرا الفناء وان يدخلا من باب صغير لم اكن قد لاحظته من قبل. فرحبت بها وغمرتها بكل لمسات العطف الممكنة وهي مزينة ومبرجة قد تعلمت اطوار الادب وادت دورها بكل مهارة. فاريتها اولا العلبة الصينية بكل ما تحتويه من كنوز فتعلقت بمروحة حلوة ومذهبة وبشريطة ذهبية على خلفية زرقاء اهديتهما اياها ثم زورتها المنزل الذي كان يحتوي على اثاث مرتب الا انها لم تبد اعجابها الا تجاه الرسوم المذهبة التي تمثل القصر الملكي مع كل البلاط الفرنسي وقد زينت جدران الغرفة في حين كان السقف يحمل راية الملك حيث الختم مطبوع محاط بقطعة من القماش الازرق تتناثر عليه زهور الزنبق. كما وتأملت باعجاب المرآتين وتفحصت عن قرب مغسلة تزينها دانتيلا من الذهب وصوانا وضعت عليه

عدة قطع من اعمال الصياغة. وبالتالي فان كل الاثاث وخصوصا الكراسي التي لا يعرف استعمالها في تلك البلاد قد نال اعجاب تلك الفتاة الصغيرة. وقد دعوناها ان تجلس على مربعات موضوعة فوق السجاد التركي مهيئ لاستقبال الضيوف المحليين الا انها كانت تمعن بالتأمل دون ملل. ثم اننا توصلنا بعد جهد ان نطعمها بعض المربيات. وبعدها ودّعتني بكل ما ينبغي من الامتنان والادب مما اثار دهشتي. وكان العبد قد اخبرني بانها ابنة سيدة المنزل الرئيسية فحملته اناء من ازرار القرنفل المجفف على الطريقة الهندية هدية الى تلك السيدة التي ظهرت مرارا على النافذة مبرجة ومزينة كما وصفتها اعلاه. فاشار العبد انه فهم ذلك تماما. وما ان وصلت الفتاة الى بيتها حتى سمعت اصوات التعجب وعبارات الشكر تتكرر مرارا ظهرت بعدها السيدة المعنية لحظات متتالية عند النافذة حاملة المروحة مفتوحة ومعبرة بحركات شتى عن الفرح الذي كان يغمرها. وبعد بضعة ايام وقد ازدادت تلك الحسناء الفة وايناسا، وقفت عند نافذة احدى الغرف القريبة من شرفتنا واعطتني من خلال حواجز الخشب قبضة من الزهر الابيض المعتبر في اليمن وهو اشبه بالياسمين الاسباني عطرا وشكلا.

هذا ما ادت اليه كل الملاطفات بين تلك السيدات وبيني. وفي الحقيقة لما كنت اعرف جيدا رب البيت الذي كنت مقيما فيه اذ كنت ازوره مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع، سمحت لنفسي مرة ان ادخل بيته في الوقت الذي تعود فيه النساء من المدينة بعد قضاء زياراتهن. فوجدتهن واقفات عند العتبة فابتدأنا بتبادل التحية والامنيات واذا بالسيد يدخل ويشير لهن بكلمة واحدة ان ينسحبن بسرعة ثم يرحب بي كالمعتاد.

بعد ان تعرفنا على مدينة المخاء وسكانها يبقى ان اقول لكم بان مناخ البلاد جاف للغاية ولا تتوفر فيه الا مياه نتترونية سيئة ومالحة كما هي الحال تقريبا على شواطئ البحر الاحمر. لا بل ان اراضي المخاء هي الاشد سوءا فالحرارة عالية فوق الحد ولا يهطل المطر الا نادرا. فحين وصلنا اليها لم يكن المطر قد هطل منذ سنتين كاملتين وكان الطقس حارا في كانون الثاني (جانفييه) وكانه طقس باريس في شهر تموز (جويليه). الا ان الناس الذين قد اعتادوا على ارتفاع درجات الحرارة في حزيران (يونيو) وتموز (جويليه) حين تهب ريح الجنوب كانوا يقولون احيانا بانهم يشعرون ببعض البرد وان الاغنياء منهم يرتدون العباءة ولا يتركونها الا في شهر اذار (مارس). وابان اقامتنا امطرت الدنيا في ذلك الشهر مرتين وكنا قد لاحظنا ايضا انه حوالي التاسعة والعاشرة صباحا تأتي من البحر ريح باردة ترطب الهواء جيدا وبدونها يصبح من الصعب تحمل القيظ بحيث انك تتصبب عرقا دون القيام باي نشاط.

وترى في خارج المخاء بعض اشجار البلح مزروعة في الرمال التي يعتنى بريها من مياه بئر محفورة وهي تعطي تمرا من النوع العادي. وينبت ايضا في بعض الاراضي نوع من الذرة البيضاء تبلغ حبتها ثلاثة اضعاف الحبة التي نعرفها. وبعد هطول المطر تكتسي الارض بغطاء من الملح اما الذي يستعمله اهل البلاد فانه يجمع دون عناء بواسطة السواقي والجداول التي تمتلئ بمياه البحر عند المد ثم يجف الملح فيها الى درجة انه يجب كسره بمطرقة حجرية مشحوذة.

الرسالة الرابعة

تتمة الموضوع نفسه مع بعض الاشارات التاريخية عن احفاد النبي وعن شرفاء مكة والمدينة.

اعود سيدي الى موضوع رحلتنا وهو شراء شحنات من القهوة ونقلها الى اوروبا؛ ويجدر قبل كل شيء ان نخبركم عن البلاد التي تنتج تلك النبتة الغالية التي يأتي الناس إليها من اقاصي الدنيا.

وكما تعرفون فان العربية عامة هي تلك البلاد الواسعة التي تمتد من مضيق البحر الاحمر الى الخليج او الصدر الفارسي ومن المحيط الشرقي او بحر الهند الكبير الى حدود سوريا وفلسطين ومصر مكونة بهذا الشكل اوسع شبه جزيرة معروفة على وجه الارض. ومعروف ايضا ان هذه البلاد الواسعة تنقسم عامة الى ثلاثة اقاليم عربية هي العربية الصحراوية والبترائية (الكثيرة الحجار) والسعيدة. الا ان هذا التقسيم لا يأخذ به الجغرافيون والمؤرخون الشرقيون.

بل ان هؤلاء يقسمون العربية الى ممالك ومناطق واقاليم مختلفة لا يزال يحكمها اليوم ملوك وامراء خاصون لا ارتباط لهم مع السيد الاعظم ولا مع ملك فارس.

ومن اهم تلك الممالك مملكة اليمن التي تغطي معظم المساحة التي كانت تسمى العربية السعيدة. وتمتد تلك البلاد شرقا مع شاطئ البحر المحيط من عدن الى رأس الحد أي من خليج الى خليج آخر ويحده جزء من البحر الاحمر غربا وجنوبا اما من جهة الشمال فتفصل حدود المملكة بينها وبين مملكة الحجاز الخاضعة لشريف مكة.

ومملكة اليمن باستثناء سائر المناطق العربية الاخرى هي وحدها التي تنتج شجرة القهوة لا بل هي لا توجد بكثرة الا في ثلاث مقاطعات رئيسية هي: بيت الفقيه وسنان (صنعان) أو صنعاء وجلباني باسماء مدن ثلاث واقعة في الجبال وعاصمة المملكة كلها هي صنعاء. ومن المؤكد ان الجبال هي التي تكون اهم ثروات بلاد اليمن خصبا واعتدالا. وكما قلت سابقا فان كل المنطقة الممتدة على طوال البحر الاحمر تكون شاطئا ارضه رديئة وشبه جرداء وقد يبلغ عرض السهل الساحلي احيانا من عشرة الى اثني عشر ميلا اما بصورة عامة فترتفع من الشاطئ تلك الجبال نفسها حيث القهوة طبعا وايضا العديد من الاشجار الاخرى وتوجد الثمار بكثرة وحيث توجد ايضا المياه الصحية والعذبة في مناخ يشبه الربيع الدائم.

وقد كان بوسعنا ونحن في عدن ان نحمل القهوة الواردة من صنعاء وجلباني لسهولة النقل الا ان نوعيتها غير محبذة الى جانب قهوة بيت الفقيه. ونظرا لتلك الاعتبارات واملا بان نجد قهوة بسعر ادنى جئنا الى المخاء فوقعنا اتفاقية مع حاكمها وقمنا بتأمين ما يلزم لاقامتنا فيها وضمان امن بواخرنا ثم ذهبنا الى بيت الفقيه حيث اسسنا محلا للتجارة ونقل القهوة برا الى المخاء.

وتبعد بيت الفقيه عن المخاء حوالي خمسة وثلاثين ميلا باتجاه البحر الاحمر الذي تبعد عنه نحو داخل البلاد مسافة عشرة اميال. ويرحل اليها مسيرة نهارين بمحاذاة الجبال مرورا بمدينة زبيد الواقعة في ثلثي المسافة وفيها كنا نمضي الليل عادة ويبدو انها كانت مدينة كبيرة ومهمة الا انه لا يوجد فيها ماء سوى ان بعض الجغرافيين يذكرون لها نهرا. وصحيح اننا نصادف على الطريق العديد من الجسور الصغيرة التي تعبر فوق انهر او

سيول تنهمر من الجبال ونادرا ما تصل الى البحر بل تغور في رمال الشاطئ المتلظية.

مدينة بيت الفقيه رغم انها اكبر من المخاء فهي تقع تحت حكمها ويعين فيها حاكم المخاء نائبا عنه يحمل هو ايضا اسم "حاكم". وتزدان المدينة بمساجدها الجميلة ذات الابراج او المآذن العالية البيضاء اللون من الخارج ومن الداخل. اما بيوتها فهي من الاجر مبنية بطابق واحد او طابقين مع شرفات. وليس للمدينة سور بل على بعد طلقة بندقية ترى حصنا جميلا للغاية يوجد فيه مصدر الماء الوحيد وهو بئر عميق جدا يستخرج منه بواسطة جمل ماء تصل حارة وكأنها تغلي لا يمكن شربها الا بعد ان تهمد وتبرد طيلة الليل فتصبح من اعذب ما يشرب هناك.

ويوجد في هذه المدينة بازار كبير او سوق للقهوة يمتد على باحتين مع اروقة متعددة مسقوفة. واليها يأتي عرب الارياف بمنتوج القهوة في اكياس من الحصير تحملها الجمال كيسا من كل جنب. والتجار الذين يريدون شراءها يستعينون بالبانيان وهم اناس يلعبون دور اليهود في تركيا والسماسرة في اوروبا، خصوصا في ما يتعلق بالقهوة التي يجيدون معرفتها تماما.

وفي صدر البازار في الوسط يوجد ديوان او بالاحرى صفة (اريكة) بارتفاع اربعة اقدام يجلس على سجادها ضباط الديوان (الجمارك)، واحيانا قد يأتي الحاكم نفسه. هؤلاء الضباط يسجلون كل ما يتم وزنه امامهم مع اسعار القهوة التي تباع لتأمين ما يحق منها للملك. اما القائمون على الوزن فيستخدمون الميازين الكبيرة والاوزان عبارة عن احجار كبيرة ملفوفة بالقماش.

وكل ما يُدفع ضريبة على بيع القهوة فان البائع يدفع وحده قيمة فلس على القرش الواحد من سعر الشراء. ويجب دائما الدفع نقدا اذ ان الفلاحين العرب لا يقبلون التسليف. اما النقود فهي القروش المكسيكية ولا رواج للبيروفية او الاشبيلية منذ ان دس فيها البرتغاليون، حسب زعمهم، قطعا مزيفة، وهم ليسوا على استعداد ان ينسوا ذلك. ويقبلون ايضا سكاكي الذهب.

وكل يوم تحمل القهوة من الجبل الى بيت الفقيه الذي لا يبعد عنه اكثر من ثلاثة فراسخ. وسوق القهوة مفتوح كل ايام الاسبوع ما عدا يوم الجمعة حيث يذهب الحاكم ورجال الجمارك الى الجامع بعد الظهر مع الضباط والعسكر رافعين اعلام النبي محمد والملك. ويمتنع الفلاحون عن نقل القهوة الى المدينة عندما يرون ان الاسعار ادنى مما يطلبون.

ومن بيت الفقيه يتم شراء القهوة الى تركيا. فتجار مصر وتركيا يقصدونها لهذه الغاية فيحملونها بكميات وافرة على ظهور الجمال عدلين على كل جمل يزن العدل حوالي سبعين ليبرة. وينقلونها الى مرفإ صغير على البحر الاحمر يقع بموازاة المدينة على بعد عشرة فراسخ. وهناك يحملونها على سفن صغيرة لينقلوها داخل الخليج نحو مائة وخمسين فرسخا وصولا الى مرفإ اكبر اسمه جدة او زيدن وهو بالحقيقة مرفأ مكة. ومنه يتم شحن القهوة على بواخر تركية لنقلها الى السويس وهو المرفأ الاخير في طرف البحر الاحمر التابع للسلطان الاعظم، ثم يحمل على ظهور الجمال لينقل الى مصر والى اقاليم اخرى من الامبراطورية التركية وذلك بواسطة القوافل المختلفة او عن طريق البحر الابيض المتوسط.

واخيرا فان مصر هي مصدر القهوة التي استهلكتها فرنسا الى يوم باشرنا رحلتنا العربية هذه.

يسبب شراء القهوة الذي نقوم به حاليا ارتفاعا في الاسعار كل يوم من ايام افتتاح السوق. فقد أدى وصول بواخرنا الى المخاء الى ارتفاع الاسعار كما ادى الى ذلك شحن القهوة في الوقت نفسه الى مصر وتركيا.

اما في ما يتعلق بالاسعار عامة فلقد تغيرت الامور تماما ومن السهل الملاحظة ان استهلاك القهوة لم يبلغ قط هذا المستوى في زمان مضى. فمنذ اقل من خمس وعشرين سنة كنت تحصل بعشرة او اثني عشر قرشاً على بهار بيت الفقيه وهو يزن سبعمائة وخمسين ليبرة فرنسية. اما سعره الحالي فيبلغ مائة وخمسة عشر قرشا ان لم يكن اكثر في بعض الاحيان.

ولكن لنعد الى المخاء التي كانت دائما مركز اقامتي بصفتي مديرا لاهم الاعمال طيلة تلك المدة التي بقيت فيها بواخرنا في الميناء. وكنت طلبت من السيد شامبلوريه ان يقرر اقامته في بيت الفقيه لاعمال الشراء ولارسال القهوة عن طريق البر من مدينة الى اخرى. وكانت لا تزال علاقتي جيدة جدا مع الحاكم الذي كنت اهتم باستمرار بتوثيق رابطة الصداقة معه وذلك لصالح تجارتنا وبالاخص لتأمين القيمة والثقة بالقروش البروفية التي لدينا بكميات لا بأس بها. وغالبا ما كان يدعوني لمقابلته في موقع الجمرك حيث كان يأتي عادة في الصباح لكي يرى كل البضائع تمر امامه وبالمناسبة يدعوني لكي اختار كل ما يناسبني.

وقد حدثت لي حادثة كادت تفسد وتقطع العلاقة الطيبة بيننا. كان الاخوان الايطاليان اللذان عملا اكثر الاحيان كمترجمين لي قد جعلاني

اتعرف في بيتي على تاجر من المدينة اسمه سيدي محمد فاصبح من زملائنا. وكان من عادته ان يشرب من خمرنا. ويقال انه كان غنيا وبارعا في تعاطي التجارة. وذات يوم عرض علي بواسطة الابوين الحصول على افضل انواع القهوة في البلاد يقوم هو بشرائها في ارضها ودون ان يكلفني ذلك اعباء التخزين او أي شيء اخر سوى دفع الثمن بشرط ان اوفر له المبلغ اعتبارا بانه لا يقدر هو نفسه تسليف الكمية المطلوبة.

وفي اليوم نفسه ارسلت الى بيته من يحمل له الفين وخمسمائة قرش مع التأكيد له بان يرسل للحال الى الجبل ويستخدم ذلك المبلغ وفقا لما وعد به. وبالفعل ارسل من يقوم بالشراء. واذ بلغني انه فعل ذلك اطمأنت نفسي اليه وارسلت له ايضا ستة الاف قرش. ولكن الامر كان يحتاج الى كثير من العناء لكي يقوم صاحبنا بشراء البضاعة بما يعادل المبلغ المدفوع وبعد انتظار دام مدة طويلة استلمنا كمية يسيرة من القهوة تكاد ان تكون غير نقية وبالتالي تفقد من قيمتها ولا اتكلم عن عدد من الاكياس المليئة بنفايات القهوة ليس الا.

وكان معروفا بغناه ومهارته في مجال التجارة، فمرة عرض علي عن طريق الرهبان بان يحصل لي على افضل قهوة في البلاد على ان يشتريها لي هو نفسه من ارضها دون ان يكلفني ذلك دفع سلفة او أي شيء آخر غير سعرها شرط ان امده بالمال اللازم لانه لا يملك من السيولة ما يسمح له بالدفع المسبق.

وفي اليوم ذاته ارسلت من يدفع له الفين وخمسمائة قرشا ويطلب منه ان يرسل من يجب الى الجبل سريعا وان يتصرف بالمال كما وعد. وبالفعل ارسل من يقوم بالشراء. فلما بلغني ذلك تجرأت بان ابعث له من

جديد ستة آلاف قرش. ولكن شتان ان يكون الرجل قد اشترى بكل ذلك المال. وبعد مدة طويلة من الانتظار وصلتنا كمية يسيرة من القهوة نوعها سيئ وغير نقي أي انه سيخف وزنها بالتأكيد وذلك الى جانب عدة طرود مملوءة من نفايات القهوة

فلما لم يعجبني هذا الاسلوب وزادني استياء اني لم استلم البتة القهوة الموعودة مقابل ما دفعت من المال. بدأت احتاط بالحذر وابحث جديا عن افضل وسيلة لاتخلص من تلك الورطة. وكنت شبه متيقن من عدالة الحاكم الا اني كنت اخشى في هذه القضية ان يلومني وهو على حق لكوني تصرفت هكذا دون مشاركته في الصفقة. اذ اكون بفعلي هذا قد خرجت بنفسي بشكل او بآخر من كفالته المذكورة في معاهدتنا.

ومن جهة اخرى حين اتخذ طريق الاجراءات والمحاكمة أكون قد فتحت المجال لمديوني لمزيد من الوقت والوسائل لكي يبتدع الحيل في اطالة القضية ولربما الرغبة في مغادرة البلاد. واذ وجدتني في تلك الحيرة وما زلت مذهولا بكل ما حصل قررت ان اتصرف كما يلي:

ارسلت الى السيد البانيان بيرا الذي عينه لي الحاكم بمثابة رجل ثقة ليكون لي عميلا تجاريا، طالبا منه ان يحضر الى منزلي مع "سيدي" محمد، فوصلا كلاهما عند المساء. فطلبت من البانيان ان يقول لهذا الاخير انه بعد انقضاء مدة طويلة من الانتظار لم يرسل لي القهوة المتفق عليها فاني اريد بالتأكيد استرجاع مالي دون أي امهال والا فانه سيبقى رهينا في بيتي حتى يسدد كامل المبلغ او على الاقل حتى يقدم لي ضمانا ماليا كافيا، ثم توجهت بالحديث الى البانيان وسألته هل يقبل ان يكون رهينا الا ان البانيان ابدى بعض الاحتراز وتوسل مني الا ادخله في هذه الورطة. بعد

ذلك قدموا لي وجبة العشاء بينما كان الرجلان يتبادلان النظرات ويتحادثان احيانا. فطلبت خمرا لمحمد فابدى عدم رغبته الشرب وذلك على غير عادته.

وبعد العشاء جرت بيني وبينهما محادثة اخرى نتج عنها ان محمدا لم يتخذ أي قرار وان البيرا حسب زعمه لم يكن قادرا على مغادرة بشرف خشية ان يتهم بخيانته. فارسلت من يأتي بما يلزم من الحوائج من منزلهما لقضاء الليلة عندي. وبعدها احتفظت بمفتاح باب المدخل الكبير ووضعت حراسا عند باب الغرفة حيث كانا نائمين. وقد بلغني انهما كانا يعانيان من القلق طيلة تلك الليلة.

وفي الغد واصلنا التفكير مليا دون التوصل الى حل عملي. لا بل فان البيرا قد اضطر ان يذهب الى اعماله في حين بقي محمد تحت مراقبة حارسين من قبلي.

وحوالي التاسعة جاء امير البحر وتاجر الحاكم لزيارتي فأرسلت بطلب ترجماني وبعد تبادل اطراف الحديث قالا لي بانهما على علم بأني قمت بتوقيف سيدي محمد وطلبا مني ان ازيدهما معرفة بما جرى.

وكان واضحا بالنسبة لي ان البانيان كان قد زودهما بالمعلومات اللازمة وانهما مبعوثان من قبل الحاكم. وحالا جئت بالمدينون امامهما ورويت لهما بايجاز ما حصل بيننا. فاستمعوا الي بهدوء وبعد ذلك القى علي امير البحر خطابا مطولا مطبوعا بتلك البرودة والرصانة التي يتصف بها هؤلاء الناس، يستفاد منه ان الاسلوب الذي نهجته كان عنيفا وبعيدا عما اعتادت الناس عليه في البلاد فلا عجب اذن ان يتفاجأ الحاكم من تصرفي خصوصا وانه رجل يحب العدالة ويرعى مصالحي فكم اكون قد جرحت سلطته بصفته وزير العدل الذي يحق له وحده انشاء السجون

وزج رعايا سيده الملك وبالتالي اكون قد اخللت بما عاهدته اذ لم احطه علما بذلك على سبيل الكرامة واعتبارا لما يكنه لي من التقدير والاحترام.

ومن جهتي كنت اعلم يقينا ان تصرفي لم يكن يخلو من بعض التجرؤ وان فيه ما يثير بعض الحرج الا ان الظروف التي واجهتها هي التي ارغمتني على تصرف كهذا عملا لصالحي. ولذا فقد كانت اجابتي في غاية الصراحة والدقة. بدأت بالاشادة بالحاكم وبمدى كوني مدينا له ، ثم اضفت باني ابعد ما أكون عن التصرف خارجا عن ارادته وسلطانه. فقد كنت على وشك الدخول عليه في الوقت نفسه الذي اتوا الى بيتي وذلك لاسرد له ما اضطرتني الظروف ان اقوم به وطلبت اليهما ان يتفضلا باعلامه بذلك بانتظار ان اذهب واطلب منه موعدا علما اني رأيت الوقت غير مناسب مساء الامس ان اتي لازعاجه.

وهذه الاعذار الواهية كما يبدو لم تمنع المبعوثين ان يجيباني بانه حسب ظنهما كان علي الا اهمل ارسال سجيني الى الحاكم الذي كان دون اي شك سيقضي لي قضاء عادلا وعاجلا.

اذ ذاك اجترأت ازاء هذا التحدي وصرحت اولا اني على يقين مما قالا لي ثم ان في تلك القضية امر مانع وهو انه في حال ان الرجل المعني قد تم توقيفه في مركز الشركة الملكية الفرنسية فليس لي السلطة ولا الصلاحية ان اسرحه الا بعد استرداد كل المال العائد منه الى الشركة او ان ادفع ذلك المال للدائن من جيبي. علما بان هذا الشرط هو من بين الامتيازات التي تتمتع بها الشركة بفضل سمو الشعب الفرنسي وحريته. وان هذا الامتياز معترف به وساري المفعول في كل الامكنة من الشرق حيث يوجد مركز للشركة وهو انه يحق لها توقيف المديونين مباشرة دون

اللجوء الى أي اجراء آخر. وعلى هذا الاساس كان بامكاني ان ارسل جنودا للقبض على محمد جهارا وامام الملأ. الا اني تحاشيت ذلك احتراما لسلطة الحاكم ولسمعة البلد واخيرا فلم يكن يجوز لاحد ان ينتقدني حين اطبق امتيازاتنا في مثل هذه الظروف الخطيرة.

وهكذا اعتبارا باننا كنا اول الفرنسيين الذين قدموا الى شبه الجزيرة العربية للتجارة عن طريق البحر الاحمر وان مراكبنا الثلاثة الضخمة وبيوتنا وكل تلك المظاهر اثرت تأثيرا ايجابيا في البلاد، لم يجرؤ احد على الاعتراض على الامتياز الذي اشرت اليه. لا بل يبدو لي ان الرجلين ابديا كل الاهتمام به. ولما كانت سلطة الحاكم معنية الى حد ان ذلك يؤثر بالخصوص على المبعوثين بالذات فقد توسلا مني بعد ساعة طويلة من التفكير بان اقبلهما كليهما رهينة.

وانا كنت توقعت هذا الاقتراح فلم افقد ظاهر هدوئي اسوة بما كانا يظهران ايضا. فأجبت دون تردد اني اقدر كل التقدير قيمة هذا الاسترهان ولكن اذ كنت اعتبر وجود ذلك الرجل في بيتي وكأنه عملة عدا ونقدا فلا يمكنه الخروج منه الا بعد ان يتم تسديد دين الشركة كليا. والا فاني سأضطر ان انقله الى فرنسا حيث مركز الشركة التي ستوافق على تصرفي.

وكانت الغاية من تصريحي ان يدخلا في حيرة. ورأيت فعلا انهما اشمأزا من ذلك. فوقفا قائلين انهما ذاهبين لملاقاة الحاكم ليعرضا عليه ان يتكفل نفسه بكلمة الشرف اني ساستلم المال دون تأخير وان يأخذ على عاتقه القضية كلها مع الامل اني لن اهينه بالرفض.

وفي ذلك الحين بدا لي انه آن الاوان ان نعدل الجو فبادرت وقلت باني اكن كل الاحترام للحاكم وحاشا ان ارفض له أي طلب ثم اني اثق بكلامه علما بانه سبق وتعهد لي بانه سيساعدني على تحصيل كل أموالي من المديونين قبل مغادرتي البلاد.

ورجع المفاوضان بعد مدة يسيرة ومعهما قائد جيش الحاكم الذي بلغني التحية باسمه وطلب مني باسمه ان ارسل المديون اليه وهو يعد بكلمة الشرف اني ساقبض جملة الدين ان يكن بصورة بضاعة او بصورة اخرى في فترة عشرة ايام على الاكثر. واكد لي امير البحر وتاجر الحاكم الكلام نفسه مضيفين انهما يتكفلان بذلك مع الحاكم. فرأيت ان ذلك فيه ما يكفي خصوصا واني اعرف نزاهة الحاكم وانه من صالحي ان احافظ على طيب علاقتي به.

فسلمت اليهم سجيني واخذه القائد بحراسة اربعة جنود وخرجوا من بيتي جميعا ليحضروه الى قصر الحاكم. وعلمت فيما بعد انهم ادخلوه السجن وكبلوه بقيود من حديد ثم ضربوه بالعصا على اخامص رجليه. الا ان كلمة الحاكم كانت سوف تصبح عاجلا طليقة اذ بعد ثمانية او تسعة ايام قضاها محمد المسكين في السجن توصل اولئك الذين تفاوضوا معي حول خروجه من بيتي الى جمع كميات من القهوة وقدموها لي بما يقابل على وجه التقدير مبلغ المال المطلوب. وهكذا مع بعض اللباقة والحزم تنصلت من تلك القضية الشائكة التي امتزج فيها بشكل دقيق مجال المصلحة بمجال الشرف.

وفي فترة اقامتنا في المخاء تعرفنا على احد اشراف مكة من سلالة النبي محمد وقد اتى لاجئا عند ملك اليمن بعد ان خسر المعركة التي

خاضها ضد قريبه الشريف الاخر الذي بقي سيد البلاد. فخصص له الملك لاحتياجاته مبلغ مائة ليكو يوميا ومدينة المخاء موقعا لاقامته. وتتألف حاشية هذا الامير السليب من عشرين فارساً مسلحين جيدا. وكان يرتدي عباءة خضراء وعمامة من ذات اللون تزين اطرافها خيوط من الذهب مطرزة وقطعة من الكريبين. وقد شاهدناه غالبا يتجه بابهة مفتعلة نحو المسجد مع حاشيته ويمشي امامهم رجل يرفع الراية المحمدية. وكان يذهب احيانا الى مقام يقع خارج المخاء يزعم انه يضم قبور بعض الانبياء. والشعب ايضا يقصد ذلك المقام بكل تقوى ويتوقف ليصلي عند القبور خارج المدينة.

اقام الشريف خمسة اشهر كاملة في المخاء واذا بشريف مكة يعلم الملك انه اذا تابع تقديم اللجوء لعدوه فسوف يعلن الحرب على بلاده. وكفى بذلك انذارا حتى يخرج الشريف البائس من اراضيه. وقد رأيناه يغادر المخاء محفوفا بجمع غفير من اعيان المدينة ويبحث عن ارض نائية للمنفى.

ونظرا لأن بلاد العرب هي التي نشأ فيها الدين المحمدي فان المرء يطلع فيها اكثر من سواها على عدة نقاط تاريخية ودينية تتعلق به. وهكذا يمكنني التأكيد بانني تخليت هنا في هذه البلاد عن عدد كبير من الافكار المسبقة والخاطئة في هذا المجال. وبالاخص اطلعت بمناسبة وجود ذلك الشريف الخليع والطريد، على امرين مهمين لن يتعجب القارئ بان يجدهما هنا.

الاول هو خطأ اعتقاد معظم الاوروبيين والذي يوجد مسجلا في كتب قيمة وهو ان السلطان الاعظم (في اسطنبول) له السيادة على مكة المكرمةوالمدينة المنورة وان الاشراف أي الامراء من اهل بيت النبي محمد الذين يحكمونها ليسوا الا حكاما او حلفاء يدفعون له الجزية.

صحيح ان الاتراك بعد ان دمروا دولة الخلفاء واستخلفوهم الحكم بعد احتلالهم كما ان السلطان احتفظ بلقبهم ومارس كل صلاحياتهم في السلطة لكونهم خلفاء النبي. وتلك الصفة السامية تجعل من السلطان رئيسا في الدين وفي تدبير شؤون الدولة. وتلك السلطة تقر بها المذاهب الشرعية الاربعة في الدين المحمدي.

وصحيح ايضا ان انحطاط تلك الامبراطورية وتضعضعها ترك لاهل بيت النبي المزعوم فرصة لان يحتفظوا بالسيادة وبامتلاك المدينتين الشهيرتين والبلاد التابعة لهما وذلك دون اعتراض سائر الامراء المحمديين ودون الولاء لاحد منهم. وبالعكس فانه حتى الاقوى من اولئك الامراء يحيطون الاشراف والاماكن التي يحكمونها بكل الاحترام والتوقير كما ويرسلون اليهم غالبا تقاديم وهدايا ثمينة. ثم انه من بين الالقاب التي يحملونها والمعروف عنها انها فخمة للغاية لا يسمون انفسهم الا بالصفة الوضيعة الا وهي صفة "خادم الحرمين" أي مكة والمدينة. وهذا بالفعل صحيح بالنسبة للسلطان الاعظم الذي يقر لهم ذلك مسميا نفسه بصفة حامي المدينة المقدسة القدس التي له عليها سلطان وسيادة. وهذا ما يشير الى فارق السيادة ما بين الحرمين والقدس في ما يخصه.

عدا ذلك فان اهل بيت النبي، اذا اعتنقنا تعبير الشرقيين، يعودون اصلا الى فاطمة ابنة محمد وزوجة علي التي انجبت ولدين هما حسن وحسين تأسست من نسلهما عائلتان كبيرتان في الدين المحمدي وهما جدا كل الاشراف وكل احفاد محمد الموجودين الان في العالم.

اما عائلة حسن فقد انقسمت الى فرعين رئيسيين احدهما في بلاد العرب ومنه الملوك والامراء الذين سادوا على مكة والمدينة والثاني انتقل الى افريقيا ومنه ملوك المغرب والاشراف المقيمون في افريقيا.

ولا حاجة هنا لان اذكر شيئا عن بيت حسين ابن فاطمة الثاني وسلالته ومنها، حسب الشرقيين، ملوك فارس اليوم ومنها ايضا اشراف آسيا الاخرين. فهذا موضوع خارج عن اهتمامنا الحصري أي اشراف بلاد العرب لا غير.

الا انه بالرغم من ان الفرع الاول من عائلة حسن قد توزع الى عدد كبير من البيوت والعائلات في بلاد العرب فانه لم يوجد الا اربع عائلات رئيسية سادت على مكة والمدينة وهي عائلات بني قيدر او قادر وبني مستغني او عفان وبني هاشم وبني قتادة.

وشريف مكة الحالي ينتمي الى هذه العائلة الاخيرة. ويزعم انها تسود على مكة منذ اكثر من خمسمائة عام. اما الذي يسود على المدينة فهو من بني هاشم وقد سادوا ايضا على مكة ايضا قبل بني قتادة.

وهذه العائلة الاخيرة تكاثرت وتفرعت الى شعاب عديدة اخرى فاصبحت صلات القرابة بينهم سبب خلاف ونزاعات فهم يرفعون السلاح بعضهم على بعض رغبة في السيادة ويشنون الحروب الشنيعة على بعضهم.

واحيانا يقع النزاع بين شريفي مكة والمدينة فيتحاربان وتعم الفوضى في بلادهما. حينذاك فان السلطان الاعظم بصفته خليفة لا يخلو ان تصله اخبار تلك النزاعات فيوجه للاشراف كلاما صارما ويعين احيانا بالقوة

شريفا منهم يشترط فيه ان يكون من العائلة الحاكمة. وهنا لا يقدر السلطان مهما امتدت سلطته ان يزعزع ذلك الوضع القائم.

وهناك مثال شهير حول تلك الحروب الاهلية بين شريفي مكة والمدينة وحول الدور الذي يلعبه فيها السلطان الاعظم. وقد اتاني به رجل ذو اطلاع وخبرة واسعة في ميدان لغات الشرقيين وتاريخهم وهو الذي قام بترجمة النص التالي ترجمة دقيقة :

"الحمد لله اما بعد،

"لما قامت حرب بين ملكي الحرمين الشريفين وكثر القتال بينهما وأهرق دم المسلمين بسبب نزاعات خاصة وصل خبر ذلك الى امير المؤمنين العثماني ايده الله. فكتب لهما ما يلي :"

"الحمد لله اما بعد السلام على ملكي الحرمين الشريفين، من آل بيت النبي."

"اعلموا ان الصالحات محمودة بذاتها اما اذا كان فاعلوها من آل بيت النبي فانها تزداد نقاء وامتيازا وعلى العكس فان السيئات مرذولة بذاتها اما ان كان فاعلوها من آل بيت النبي فانها تزداد سوءا واجراما. ولذا اناشدكم بجاه بيت الله الحرام والركن المكرم ومقام ابراهيم ان تضعوا حدا لهذه الفضائح الشائنة وان تنسحبوا بالقرب من جدكم الاعظم والا فانني مستل سيفه من غمده لاضربكم به."

"فارسل لهما السلطان الاعظم هذه الرسالة فقرآها بتمعن حتى انهما اتفقا لشدة خزيهما على احلال السلام بينهما مباشرة وكتبا بدورهما جوابا في ذيل الرسالة نفسها التي استلماها كما يلي :"

"الحمد لله اما بعد السلام والتحية

"ان العبد يعترف بذنبه ويتوب الى خالقه. ان شئتم العقاب فان لكم القدرة بين ايديكم وان غفرتم فذلكم جدير بتقواكم."

الا ان هذا الترفع من قبل السلطان مقابل رضوخ الشريفين لا يؤدي الى ابادة سلطانهما. قد حصل بالتأكيد مساس ملحوظ بتلك السيادة خصوصا في عهد السلطان سليم الاول وفي عهد ابنه سليمان الكبير الذي لم يصمد امام وجهه احد. فقد جهز اسطولا في اقاصي البحر الاحمر فاصبح سيد شواطئ بلاد العرب وفتح جزءا من مملكة اليمن. الا ان خلفاءه لم يحافظوا مدة طويلة على تلك الفتوحات ما عدا مرفإ جدة وهو بالفعل ميناء مكة الذي لا يزال الاتراك يعينون فيه باشا محدود السلطة وعدا ذلك فانهم لا يملكون شيئا يستحق الذكر في بلاد العرب. اما على الضفة المقابلة فقد استولوا عليها كلها تقريبا من الحبشة التي لم يعد لها بعد مرفأ تملكه على البحر الاحمر.

اما الملاحظة الثانية التي يمكن تسجيلها فهي ان مكة والمدينة والبلاد التابعة لها لا تقع في اليمن السعيد او في اليمن الحالي كما هو مكتوب لدى عدد من المؤلفين، بل هي واقعة في منطقة من بلاد العرب عامة المجاورة لليمن ويسميها العرب ارض الحجاز وتهامة وهما كما يبدو مقاطعتان لكل منهما حدودها الفاصلة بينهما وتخضع كل واحدة لامير خاص مستقل عن الاخر.

واذن بعد مغادرة الشريف التي كانت موضع هذا الاستدراك، ذاع الخبر ان حاكم المخاء قد استدعي الى بلاط الملك ، اماهو فلم يكن ليستحب تلك الرحلة اليه فارسل لسيده الملك اجمل انواع الهدايا من اجمل ما جاءه من غرائب الهند ويعتذر عن المجيء بحجة ارتفاع عدد المراكب

الراسية في المخاء واهمها المراكب الفرنسية التي كان يود ان تغادر المرفأ قبل غيابه وذلك ما قد يتيح له ان يضيف الى الهدايا بعضا من النوادر الاوروبية.

ومن جهته قبل الملك الهدايا بالترحاب وتقبل اعتذار الحاكم وارسل له بواسطة احد كبار قواده حلة وسيفا وحصانا جميلا دلالة على اعتباره له ورضاه. فلما وصل المبعوث الى مقربة ميل من المخاء ارسل الى الحاكم من يعلمه بذلك وللحال خرج هذا الاخير ومعه اولاده وجميع اهل بيته وتبعه ايضا فرسانه وجنوده الذين تحت اوامره مما يشكل موكبا مؤلفا من الفي او ثلاثة الاف رجل. وكان من بينهم المدير الهولندي الذي كنا ارسلنا له الاحصنة ومعه حامل رايات الشركة وحاشية من عشرين جنديا.

وجرى اللقاء بين مبعوث الملك والحاكم على بعد نصف ميل من المدينة هناك تم قبول الحلة حسب اكمل المراسيم. فنزل الحاكم اولا عن حصانه ليتسلم رسالة الملك وليُقبل الحلة التي كان يحملها فارس لا يزال ممتطيا حصانه، ثم نزل ذلك الفارس ارضا والبسها الحاكم وزنره بالسيف وقدم له الحصان من قبل الملك. فركب عليه الحاكم وحينئذ تحرك الموكب نحو المدينة باصوات الصنوج وكان مبعوث الملك عن يسار الحاكم. اما الشعب فقد خرج من المدينة جماعات جماعات ليشاهد تلك المراسيم.

وكم كنت آسفا اني لم اتمكن من القيام برحلة الى قصر ملك اليمن بسبب تراكم وكثرة الاشغال التي كنت وحدي مسؤولا عنها. ويقع القصر الملكي حيث اقامته الاعتيادية في مدينة مواب (المواهب) الواقعة في منطقة جبلية على بعد اكثر من مائة ميل من المخاء. ويقال انها من الطف

المواقع مناخا في العربية السعيدة اضافة الى ان الملك يتمتع هناك بامان لا يتوفر له في المواقع البحرية.

وهذا الامير يمتلك السلطة بكامل السيادة حتى انه لا يقر بالسلطان الاعظم ولا بصفته كخليفة لا بل ان ملك اليمن الى جانب نسب عائلته الشريفة الذي يرجع الى عصور موغلة في القدم، يتخذ لقب "الامام" بامتياز وهو من اعظم الالقاب في الديانة المحمدية اتخذه الخلفاء الراشدون مما يجعل منهم رؤساء واحبارا يسودون على الدين الاسلامي.

وهذا الملك يتخذ ايضا لقب الخليفة وأما الامام فهو صاحب السلطة النبوية عند المسلمين

وسيادة الملك لا تعم العربية السعيدة كلها اذ ان اليمن نفسه وعلى امتداد شواطئ المحيط يتكون من مساحات شاسعة غير خاضعة لسيادته. هناك توجد ايضا مملكة فرتك حيث ينبت البخور والصمغ وشتى انواع العطور الغالية الثمن. ومدينة فرتك هي العاصمة يقع مرفأها الرئيسي في شأر الواقعة ما بين عدن ورأس فرتك.

قد قلت آنفا ان اراضي ملك اليمن او بالاصح جبال اليمن الاكثر خصوبة في العربية السعيدة تنتج القهوة. وان الذين ساحوا جيدا فيها اكدوا لي ان في تلك الجبال وفي سهول جميلة ما وراءها يوجد ايضا كروم من العنب وما لذ من شتى انواع الاشجار المثمرة خصوصا البرتقال. وقد شاهدنا من تلك الثمار في المخاء والعنب الممتاز ايضا الذي لا يصنع العرب منه الخمر بل هذا مسموح به لليهود فقط الذين يصنعون الخمر خفية. وهناك ايضا القمح الجيد وكثير من الصمغ والتوابل.

اما الحيوان الاكثر شيوعا وفائدة في بلاد العرب فهو الجمل وبالاخص ذلك النوع الوحيد السنام المهيأ للسباق فهو لا يستخدم لحمل الاعباء ويروّض منذ صغره على الركض باقصى سرعته تحت ضغوط الانهاك والضرب. فلا يستطع أي حصان ان يسبق بالهمرجلة مثل تلك الجمال التي تقدر ان تسير مسافة عشرين ميلا في الصبيحة وهذا من الامور العجيبة التي لا تصدق من هذا الحيوان البطيء عادة والضخم.

وفي اول هلال مارس/اذار احتفل حاكم المخاء بذبح عدد من تلك الحيوانات اضافة الى الثيران والغنم ثم تم توزيع لحومها على عدة نساء كنا مجتمعات في الساحة امام القصر. ونال موزع اللحوم كماسا واحدا من كل امرأة والكماس هو اصغر وحدة من العملة المحلية تساوي قيمته ما يقارب السولين. وهو من الفضة كتب عليها بعض الحروف العربية.

ثم قامت تلك النساء بتوزيع اللحوم من جديد على سائر الشعب الذي امضى النهار كله بالبهجة والفرح. وكان ذلك بمناسبة عيد المسلمين الاكبر وهو عيد الاضحى أي عيد الفداء او الضحايا. وهو يقع في العاشر من آخر الاشهر الهجرية حيث يجتمع الحجاج في مكة ويشهدون تلك الاضحية الاحتفالية التي ترفع الى الله باسم المسلمين اجمعهم.

وقد حدثت بعض الفوضى ابان العيد في المدينة بسبب التسهيلات التي سمح بها السيد شامبلوريه ولم اكن وافقت عليها وهي ان يقام شبه مقهى امام بيته لترفيه بحارته. فحصل اولا ان احد جنوده المدفعيين بعد ان سكر من النبيذ الاسباني والكحول ذهب يتنزه خارج المدينة في قيظ الظهيرة ثم وجد فيما بعد ميتا في البرية. ثم ان بانيان بعد ان سكر في نفس الموضع اساء التصرف تجاه عدد من رفاقه وضربهم بالسيف حتى ان

بعضهم رفعوا شكاوى الى الحاكم الذي ارسل ضابطا مع جنود للقبض عليه، الا ان ذاك الهائج كان قد التجأ الى بيته مقفلا الباب لا يفتحه لاحد. فدخل عليه الجنود من احدى النوافذ فوجدوه شاهرا السيف متأهبا للقتال فاصاب ثلاثة جنود بجروح مات احدهم من جرائها في الليلة نفسها. ثم قبض عليه اخيرا بالقوة وفي الغد قضى الحاكم بقطع رأسه.

وهذا البانس يدفعني هنا الى تسطير بعض المعلومات عن البانيان عامة وهم الذين تتم بواسطتهم اعمال التجارة في بلاد العرب. اصلهم جميعا من بلاد الهند وبالاخص من جزيرة ديو في مملكة كمباية القريبة نسبيا من سورات. ويأتون الى بلاد العرب في مطلع العمر بحثا عن المال والثراء بواسطة التجارة. ومنهم من يهاجر ايضا الى مناطق اخرى من الهند سعيا وراء الغاية نفسها.

وتجد من بينهم تجارا في غاية الثراء وكثيرا من وزاني الذهب والفضة واناسا في شتى انواع المهن. ولا ينكر انهم من أمهر المحاسبين في العالم. فبواسطة ثلاثة او اربعة حروف يكتبونها على اظفر الابهام وهم مستعجلون يستطيعون اجراء عملية حسابية باسرع من لمح البصر. الا ان عليك ان تبقى حذرا معهم لانهم سرعان ما يغدرون ببراعة عجيبة. وحسب اعتباري الشخصي يبدو لي ان التجارة مع هؤلاء الناس قد افسد العرب الذين هم بفطرتهم سليمو الارادة وأوفياء ويعتبرون ذلك من الخصال التي يجدر التباهي بها. وبالطبع يحصل ايضا أن منهم من يخادع خصوصا ان كان متأكدا من خداعه.

اما دين البانيان فهو نوع من الوثنية الغريبة والساذجة اذ يقال انهم يعبدون شتى انواع الحيوانات وبالاخص البقرة التي يقيمون لها اكبر

مراسيم العبادة والمحبة. وانهم متشبثون باعتقادهم في التقمص الى حد انهم لا يسيئون البتة الى أي كائن حي ويعبرون عن اقصى استيائهم اذا جرى امامهم ذبح أي حيوان. اما امنيتهم الحارة عند الممات فهي ان يتمكنوا من لمس بقرة بذيلها حتى تدخل نفسهم حسب زعمهم في جسم ذلك الحيوان الحبيب.

ومن بين اعتقاداتهم الخرافية انهم يغسلون جسمهم عند النهوض من النوم وقبل الطعام وبعده وانهم لا يأكلون كل ما فيه حياة ويذهبون كل مساء الى شاطئ البحر للقيام بصلواتهم ومسح الماء على جباههم بيدهم. كما يستخدمون كل صباح مزيجا من روث البقر ومسحوق الزعفران يختمون منه جبينهم واقصى آذانهم وهم ساجدين حتى يمس جبينهم الثرى.

وفي هذا البحر من الخرافات تجد فيهم تلك الفضيلة الحسنة انهم يغفرون الشتائم بسهولة ولا يسيؤون الى احد قط. وفي النهاية يبدون في ظاهرهم ذوي عادات كلها براءة. حتى انه يقال ان اسمهم "بانيان" لا يعني شيئا آخر سوى الانسان البسيط البريء. ولهم لغة خاصة وكتابة جئت ببعض النماذج عنها واظن انها الملبارية.

عدا هذا فان لباسهم فريد من نوعه خصوصا ما يضعونه على الرأس وهو شبيه بالعمامة التي تقارب قدر المستطاع شكل قرون البقرة ورأسها. عدا هذا فانهم يرتدون نوعا من قلنسوة من القطن تتسدل الى القدم ويتزرون بزنار طويل يكفي ليدور حول الجسم ويمر بين الفخذين. وهم لا يرتدون لا كلسات ولا البسة داخلية كما ويمشي اغلبهم حافي القدمين. اما اعيانهم فيضعون زنارا من الحرير مطرزا عند طرفيه بخيوط حريرية ملونة بالوان مختلفة.

اما العرب فانهم يبغضونهم كل البغض وانما يحتملونهم في سبيل المعاملات التجارية ولا يسمحون لهم بالزواج في بلاد العرب او الاتصال باي شكل من الاشكال مع النساء العربيات. ولذا فهم يضطرون الى العودة الى الهند اذا عزموا على الزواج او بعد ان نالوا حظهم من الثراء عند العرب. لقد مضى اكثر من ستة اشهر ومراكبنا راسية في مرفإ المخاء وآن الاوان لان نغادر. لم يتبقَ لنا احد في بيت الفقيه وكل المشتريات ونقلها من تلك الناحية كانت قد تمت. كما ان السيد شامبلوريه الذي كان حدد اقامته الرئيسية هناك قد غادرها وانتقل الى مركبه. الامر الذي لم يرضَ به الحاكم الا بصعوبة مكتفيا بالتعامل مع كاتبه لقضاء كل ما كان يتعلق به شخصيا. واخيرا كان كل ما لدينا من مال قد استهلك في القهوة بما تبلغ قيمته اكثر من مائتي الف قرش بما فيها ثمن بضاعة المركب الهولندي. ولم يتبق سوى انهاء بعض الحسابات مع ضباط الجمارك ومع بعض الخاصة في بعض الصفقات الاخرى. وفي تلك الفترة اضطررت ان اصحح تصرفا سيئا قام به الكاتب المذكور وهو انه كان يتضجر في المخاء فقصد الرحيل دون استئذان متخذا زي بحار. الا ان امير البحر كشف تنكره واثار ضجة كبيرة ثم ابلغ الحاكم بذلك بعد ان ادخله السجن. فتوسل الكاتب مثيرا بذلك مزيدا من الانذارات وقمت انا بذاتي بالتدخل في القضية حماية للشرف ودفعا عن مصالح السيد شامبلوريه الذي استنكر تصرف الكاتب. قمت اولا بتسديد بعض الإلتزامات الصغيرة الخاصة به. ثم قلت لامير البحر كل ما يجب في المناسبة، وبعد قليل اجتمعت بالحاكم في بيت نائبه حيث كان جالسا في طرف شرفة واسعة وحوله عدد كبير من الوجهاء ومن بينهم ذلك السيد الذي نوهت عنه في شأن جاراتنا السيدات.

فدعيت اولا الى الجلوس وقبل ان يسمعني الحاكم جعل يوبخ ذلك المسكين محمد الذي اوردت حكايته سابقا. وازداد عليه غضبا وضربه بعصاه بحذر مما رمى بعمامته ارضا ويعتبر ذلك عار مشين عندهم.

فبادرت بالتدخل لصالح هذا البائس بعد ان رأيت ان حضوري هو الذي كان سبب التذكير بما حدث. فتلاطف الحاكم ثم اصغى الى القضية الخاصة بالكاتب الذي بدأت بالتأكيد على خطئه. فأخذ تدخلي في شأنه بعين الاعتبار ووافق له بالصعود الى المركب وانما بعد الادلاء بوصل من الصراف أي من الصائغ او مبدل العملة، وهي من الاجراءات الضرورية المفروضة على كل الاجانب الذين يغادرون مرفأ المخاء بعد تداول التجارة فيه. وكان الامر سهلا للغاية اذ ان السيد شامبلوريه وكاتبه لم يكونا مدينين بشيء بعد واني من جهتي كنت قد دفعت حوالي مائتي قرش قبل المجيئ الى القصر.

وقضيت بعدها وقتا طويلا مع الحاكم الذي استطاب ان يبادلني الحديث حول عاداتنا الاوروبية. وسألني بالاخص عن جيوش الملك وعن البحرية الفرنسية. ثم وقعنا بعدها من حيث لا ادري في موضوع النساء فوجد ان عاداتنا غريبة للغاية نظرا للحرية التي يتمتعن بها عندنا ولمعاشرة الرجال للنساء، معاشرة حسب قوله يأتي بها الفرنسيون حتى بلاد العرب مما ادى الى بعض الشكاوى فيما يتعلق بذلك كانت قد بلغته من قبل الاعيان في المخاء. وهي ان نساءهم كانت موضع مراقبة دون حياء من أعلى الشرفات الى داخل البيوت. واضاف ضاحكا ان لا حاجة الى ذكر مغامرة غرامية جرت في بيت الفقيه واتهم فيها احد ضباطنا.

واخيرا كانت المحادثة بيني وبين الحاكم من امتع ما تكون المحادثة خصوصا بعد الخوض في قضيتين صعبتين. كما وانه لم يشر البتة الى قضية سيدي احمد التي كانت قد ازعجته كثيرا وذلك اما عن تقدير تجاهي واما انه شاء ان ينساها لئلا تمس بالمزيد سيادته ومكانته.

وهكذا بعد ان انتهت كل اعمالنا التجارية اتى اليوم المحدد لصعودي الى المركب فذهبت لطلب الجلوس مع الحاكم والاستئذان بالمغادرة فاستقبلني وغمرني بالحفاوة وعرض علي ان امدد اقامتي في البلاد مع الوعد بان يوفر لي ما يلزم لشحن مزيد من القهوة والبضائع الاخرى من البلاد باسعار تسرني كما ويؤكد لي انها مناسبة بان احصل على ثروة في المخاء. فلما اجبته باني استنفدت كل مالي وقروشي اجابني بانه مستعد ان يؤمن لي كل ما اريد وانه ليس علي الا ان ابادله الثقة.

وعندها فهمت ان الحاكم، ان ابديت بعض التفاهم، كان على استعداد ان يستخدمني لغاياته الخاصة علما انه كان يحب الكسب عن طريق التجارة وانه كان يتدخل في ذلك المجال بكل علانية حتى ان الامر كان معلوما يهمس به اهل البلاد.

ومن جهتي كان بامكاني ان اجد منفعتي لو اني قبلت عروضه الا اني فضلت الخير العام للشركة التي أئتمنتني على مصالحها على أي اعتبار اخر : ان اطالة الاقامة اكثر من ذلك كانت لها عواقبها المحتملة : حالة الحاكم كانت قابلة للتغيير ثم ان مراكبنا كانت بامس الحاجة الى مغادرة مياه المرفأ لانها كانت تسبب مع الوقت نشوء دود خاص مهما كان الخشب الاروبي جيدا. فتحاشيت بكل ادب اقتراحات الحاكم وانصرفت بكل رضى عن كل ما جرى بيننا.

وآخر مهمة قمت بها هي ان احاسب على كل ما بقي من حسابات في ما يخص البيت الرئيسي الذي اقمت فيه في المخاء وذلك للحصول على ايصال عام من قبل الشخص الذي استأجرت البيت بواسطته.

وهذا هو الكتاب الذي استلمته بعد ذلك واظن انه يستحق ان يدرج هنا لعله يثير بعض الفضول.

"الحمد لله اما بعد

"تشهد بهذا الكتاب ان المولى او العالم علي بن عبد الوهاب قد دفع اجرة منزل الورد الخاص بالفقيه الخضر الذي اتخذه للسكن باسمه مقابل مبلغ ثمانين دوكة من الذهب ولم يتبق عليه شيء من ذلك المبلغ الخاص بالايجار. واليوم السادس عشر من هلال محرم سنة واحد وعشرين ومائة والف. وكتب الفقير اليه تعالى قاسم قاسم الوضيع." الفقيه الخضر هو اسم عالم في الفقه اسمه ايليا كان قد بنى ذلك البيت ليختلي فيه لاقامة الصلوات الخمس اليومية امام الجمهور، وتسمى تلك الصلوات الورد انتسابا الى الوردة الخضر يعني حرفيا الاخضر او المخضر. وينسب المسلمون هذا الاسم الى ايليا النبي لانهم يعتقدون الى الان انه ما زال مليئا بالحياة .

ولما كدت ان اصعد الى المركب حدثت لي حادثة مع البانيان بيرا الذي بدلا من ان يسدد الف قرش كانت لي عليه بعد كل الصفقات التي اتممناها معا والتي كانت مدونة بوضوح في دفاتر الحساب اتى ليصرح بانه لم يعد يدين لي بشيء مدعيا ذلك بدعم من قبل امير البحر وبعض ضباط الحاكم. اما هذا الاخير فلم يكن يحق له ان يتدخل شخصيا في هذه

الحادثة. فتوسط بيننا كابتن انكليزي كان قد وصل مؤخرا من الهند وارسى مركبه بالقرب من مراكبنا. واراد ان يوفق بالقسط بيننا. ومن جهتي وكلت امري وفوضته بذلك. الا انه لم يتمكن من الحصول على شيء بسبب بخل البانيان. فصعدت الى المركب وكلي اسف على هذا الحدث الطارئ لكني قلت لامير البحر انه نظرا لذلك الظلم الذي عانيت منه فاني قادر على التعويض عن اضراري باتخاذي بعض اعمال الردع قبل مغادرتي الجون. بالحقيقة لم تكن تلك نيتي الا اني اردت ان اختبر ما اذا كان التهديد سيعمل لصالحي ام لا. ثم زيادة في الاقناع وصلت الى المركب وسلحت الزوارق وارسلتها لسبر المرفأ في عدة مواضع. فكان من جرائها ان اطلقت عدة طلقات مدفعية من جهة الحصون وبعد قليل شاهدنا زورقا يرفع الراية البيضاء ويتجه توا نحو مركبنا. فخرج منه رجل وسلمني رسالة من الكابتن الانكليزي وكيسا يحتوي على خمسمائة قرش وهي كل ما تمكن هذا الضابط الخير ان يحصل عليه ويحرضني على القبول به. وكتب لي يسألني ان اضيف الى الحسنة حسنة وان استجيب لطلب ملح من البانيان وهو ان اسل له قطعة من القماش يصنع منها حلة وذلك رمزا للمصالحة وحسن المودة وايضا حسب قوله صيانة لسمعته في البلاد حيث حصل ذلك الخلاف. كم كنت مسرورا من تصرفات صاحبنا الانكليزي اما اسباب المغادرة دون أي تأجيل فكم هي حسنة : العلاقة جيدة مع كل الناس وقد قدمت كل التنازلات اللازمة ولا اخفي اعجابي بمروءة البانيان الغريبة الذي سرقني بكل وقاحة وحرص في نفس الوقت على صيانة سمعته.

فكتبت الى الكابتن الانكليزي اشكره ثم رفعنا الصواري والاشرعة باطلاق التحية الى المدينة والحصون كما فعلنا عند دخولنا اليها.

الرسالة الخامسة

هذه الرسالة هي الاخيرة، وتتضمن ما حدث في طريق العودة، منذ انطلاقنا من المخاء حتى وصولنا الى سان مالو.

خرجنا ياسيدي من ميناء المخاء في العشرين من شهر آب، وحالا بعد مضيق البحر الاحمر، سرنا بمحاذاة الشاطئ الافريقي حتى رأس غاريسوي حيث دفعتنا التيارات الى الشمال، مما اجبرنا على المرور بين جزيرة سقطرة وساحل فارتاش (فرتك).

وصلنا غرب مالديف في الثامن عشر من ايلول، والتقينا بمركب من استردام، مسلح بأربعة واربعين مدفعا، يتجه من بتافيا الى سورات فهاجمناه، وبعد مقاومة شديدة تمكنا من السيطرة عليه. كانت حمولته تقدر بأكثر من مائتي ايكو وفيها عدة صناديق من الفضة وسبائك من الذهب. فاخذنا المركب الى جزيرة موريس لننزل فيها طاقمه.

رأينا هذه الجزيرة واقتربنا منها وسرنا على بعد نصف فرسخ من شاطئها، ولاح على الشاطئ مبنى صغير من الحجر الابيض على شكل معبد، مما دفعنا الى التخمين بأن المنطقة مأهولة بالسكان. تابعنا مسيرنا وبعد ذلك بقليل رأينا الجبال المسجلة في خريطتنا البحرية، التي يقع على مستواها افضل مرفأ للجزيرة ويسمى مرفأ بيتربوتد. فارسينا على بعد ثلاثة ارباع الفرسخ وانزلنا القوارب والزوارق لاستطلاع ذلك الميناء.

نزل رجالنا المسلحون جيدا الى البر، ووجدوا قطيعا من البقر الوحشي، فقتلوا منه اثنين وحملوهما الى مركب م. شامبلوريه، الذي روى

لنا ما حدث. كما ان البحارين اصطادوا سمكا جميلا كان شهيا للغاية، وما كان ذلك الا تباشير خير عن هذا البلد بشكل عام، حتى نرسو فيه. فاطلقنا من مركبنا ثلاث طلقات مدفعية لندعو السكان لكن احدا لم يظهر.

وفي صباح اليوم التالي ارسلنا زوارق الى البر، سعيا لإيجاد ثيران او حيوانات اخرى دون جدوى، لكنه تم اكتشاف ما هو افضل، فلقد عثر رجالنا على سائق هولندي مع سرب من الكلاب، فأحضروه الى المركب، بينما كانت كلابه تثير ضجة هائلة على الشاطئ، حيث بقيت في انتظاره مدة يومين كاملين، وهي تنبح باستمرار خلفه.

علمنا اثناء ذلك من السائق الهولندي انه وسائق اخر لم يره رجالنا، يسكنان في منزل قريب من البيت الابيض، الذي بدا لنا وكأنه معبد، وانهما في الجزيرة من رعايا الحكومة الهولندية التي تعطيهم قرشا واحدا ثمن كل دزينة من جلود الغزلان التي يأتون بها. وكان سلاحهم مجرد سكين جيد يستعملونها بعد ان يمسك الكلاب بالغزلان، فيلقون اليها باللحم ولا يحتفظون الا بالجلد، الذي يصنعون منه الشاموا. هذان الرجلان كانا قد ذهبا الى الصيد مع شروق الشمس وبالتالي لم يسمعا دوي طلقات مدفعنا. وبعد هذا استحسنا ان نقوم بامرين : اولا ان نرسل في صباح اليوم التالي مع هذا الرجل رسالة الى الحاكم نطلب فيها منه شراء مؤونة ومنعشات لنا وللهولنديين الذين استولينا على مركبهم، والا فكانوا سيعانون من الالم الشديد، ونعده ان نعيد له الاسرى.

قررنا ثانيا ان هذا السائق الذي منعناه من اية محادثة مع الهولنديين الذين على متن المركب، سيذهب بصحبة عشرة من الجنود الى المكان الذي سيلتقي فيه برفيقه، ومن هذا المكان سيتابع سفره الى الحاكم، بينما

يرسل لنا رفيقه كرهينة حتى حين عودته، ما لم يرغب هو بالعودة الى المركب ويرسل السائق الاخر ليحمل الرسالة. نفذ ذلك تنفيذا جيدا، لان الفرقة عادت في مساء اليوم نفسه ومعها السائق الثاني، في انتظار عودة الاخر مع جواب الحاكم.

وعلمنا من حديثه ان جزيرة موريس لم تعد تسترعي كل اهتمام الهولنديين منذ ان نفد العنبر الرمادي فيها وبعد ان اصبح تسويق خشب الابنوس صعبا في هولندة. ثم إن محاصيل الارز اصبحت نادرة منذ زمن طويل بسبب الجفاف الصارم، اضافة الى ان تكاثر القردة والجرذان اصبح يقضى على كل شيء.

روى لنا ايضا انه في الجهة التي رست فيها سفينتنا كان هناك الكثير من الغزلان والماعز، وانه في الجهة المقابلة من الجزيرة وما وراء الجبال، كان يوجد الكثير من الخنازير البرية التي تسببت باضرار بالغة. وقد صدر امر منذ امد قريب بتنظيم رحلة صيد عامة للقضاء عليها، فاجتمع السكان وقتلوا منها في يوم واحد مايقارب الفا وخمسمائة خنزيرا بريا.

وقد قال لنا هذا الرجل اخيرا انه لا يستضيف في هذه الجزيرة الا نحو ثمانين هولنديا، وان سفينة من الشركة، قد مرت منذ عامين، وحملت الى الحاكم امرا بنقلهم مع عائلاتهم الى بتاي، والانتظار هناك حتى يتم نقلهم في أي وقت ممكن.

في ذلك اليوم ذاته ادخلنا اثنين من مراكبنا الى ميناء بيتربوت، بعد بنائه وإرسال مراكب اخرى دخلت في اليوم التالي ويوما بعد عودة سائقنا يحمل رسالة من الحاكم ويقدم معها ثمارا من البلاد، برتقالا وليمونا وبطاطس. اما الرسالة فتفيد انه ليس بإمكانه تزويدنا بشيء عند الضرورة

بسبب الحرب بين البلدين، وانه يجد نفسه في حالة دفاع عن النفس، اذا ما اردنا اهانته، الا انه ياخذ بعين الاعتبار وضع اسرانا، خادمي شركة هولندة وسيرسل لنا السائقين ليكون بإمكانهم تزويدنا بالغزلان والماعز. وانه يعتذر عن ارسال ثيران، اذ ليس لديه ما يكفيه، ذلك عدا عن استحالة احضارهم من مكان بعيد عبر الغابات. واما الخضار وما شابه فإننا سنجدها بسهولة.

بناء على هذا الرد قررنا ان نرسل له هدية سيحملها اليه نقيب بحري يجيد اللغة الهولندية، وكاتب م. شامبلوريه. فقطعا سبعة فراسخ ليصلا الى البر، الى القلعة حيث يقيم الحاكم، بعد ان اجتازا نهرا صغيرا اعترض طريقهما ليلتقيا بعدها بحرس مؤلف من خمس وعشرين رجلا مدججين بالسلاح.

استقبل رجالنا استقبالا حسنا، فقد استمتعوا بأكل اللحم البارد وشربوا بيرة وبنش وهو مشروب يتكون بنسبة ثلث من الكحول وثلثين من الماء ويضاف اليه السكر والمسك.

اخذهم الحاكم الى القلعة وقدم لهم عشاء لذيذا، اكلت منه الحاكمة زوجته. وارسلهم في اليوم التالي يحملون معهم كمية من الفواكه والمنعشات الاخرى. وعند عودتهم عقدنا اجتماعا للضباط الهولنديين الذين كتبوا بأنفسهم للحاكم، يخبرونه ان اثنين او ثلاثة من الغزلان لا تكفي طاقم اربعة مراكب. فأرسل الحاكم في الحال ملازم الحامية الذي ابلغنا بثنائه واطرائه وزيارة الضباط الهولنديين مصطحبا معه صيادين اخرين. وهكذا صار يتوفر لدينا اربعة او خمسة غزلان في اليوم.

كنا انا والسيد شامبلوريه وبعض الضباط من الصيادين الماهرين ونحب ان نخرج الى الصيد. كنا نمشي طويلا لنعثر على الثيران التي كنا

نريد صيدها اولا، فنشكل فريقين ونسير على طرفي الجبل الذي كان عاليا جدا، ومهمتنا ان نصطاد على الاقل بعض الغزلان والماعز، لكن الاقتراب منها كان دوما شاقا بالنسبة لنا. بل تقتصر متعتنا احيانا ان نرى اعدادا كبيرة منها، ونرى من اعالي هذا الجبل كل الشاطئ الذي تغطيه الغابات.

ثم نزلنا وسرنا في السهول دوما تحت الظلال، لنلتقي برجالنا الذين نزلوا من الجهة الاخرى، ووجدنا بركة ماء عذب، ينتهي اليها مسيل عميق يتابع مصبه الى شاطئ البحر، وهو يأخذ في هذا المكان شكل الذراع الممتدة بمحاذاة البركة.

كان هذا الاكتشاف تعويضا عن الصيد المتعب والذي لا جدوى منه، لاننا اخترنا هذا المكان موردا لسفننا، فالماء عذب ومن نوعية ممتازة لم نتمتع بمثله خلال كل ترحالنا منذ ما يقارب خمسة اشهر، اي من جزيرة سان موريس في فرنسا.

اقتصر صيدنا كله على بعض طيور الحمام الاحمر التي قتلناها، فقد كانت تقترب منا لدرجة تمكننا من قتلها بركلة قدم. قتلت ايضا طيرين من نوع خاص من الخفافيش، لونها بنفسجي وعليها بقع صفراء، ولها مخالب تثبيت في الاجنحة يتعلق بها هذا الطير على اغصان الشجر، ولها ايضا منقار الببغاء.

ويقول الهولنديون انها لذيذة الطعم، مثلها تماما مثل بعض الطيور والدجاج عندنا. ورأينا اخيرا قططا اصبحت متوحشة، كانت قد احضرت الى الجزيرة لتخليصها من الجرذان التي كانت متواجدة هناك باعداد هائلة.

كنا نسدد ونصوب اسلحتنا باتجاه البحر عندما وجدنا بالقرب من مسيل صغير، ضريحا من الحجر المنحوت جميلا للغاية، يغطيه لوح من

الرخام وعليه كتابة تفيد انه قبر زوجة جنرال هولندي، توفيت على هذه الجزيرة في طريقها الى الهند. وقبل ان نصل على الشاطئ تناولنا محارا لذيذا جدا نسينا بعده التعب.

كنت على متن مركب السيد شامبلوريه، حيث تداولنا وتشاورنا لترميم وتنظيف المراكب التي كانت بأمس الحاجة لذلك، بغض النظر عن البطانة التي خربها الدود.

جزيرة سانت ماري

ظننت ان جزيرة سانت ماري تبعد فقط فرسخا واحدا عن مدغشقر، ويبلغ محيطها حوالي عشرين فرسخا، مما يسهل المهمة امامنا لعدة اسباب.

اما السيد شامبلوريه فقد رأى ان ننظف ونرمم في الميناء الذي كنا فيه، بالرغم من الشح في المؤن والمضايقات الاخرى.

لم اكن ارغب ابدا في معارضته، وبينما كنا نعمل، ذهبت الى البيت الابيض، ورأيت هناك بعض الاكواخ في سفح التلة وميناء جيدا تستخدمه بعض المراكب التي كانت ترسو قربها.

تناولنا الغداء هناك، عازمين على الذهاب لرؤية سكن صيادينا الهولنديين، وتابعنا السير عبر الغابات مسافة فرسخ واكثر. اغلب الاشجار كانت اشجار ابنوس وانواع اخرى ذات ألوان مختلفة. وكانت تصل الى انوفنا من وقت الى اخر رائحة قرنفل قوية بالرغم من ان هذه الجزيرة لاتنتج منه ابدا. ولقد قيل لنا ان بعض النباتات بارتفاع قدمين اوثلاثة لها طعم القرنفل ورائحته. فاروني هذه النبتة وتأكدت مما قيل لي بنفسي.

وبعد ان اجتزنا نهرا كبيرا تتوسطه صخور كبيرة من الرخام، وصلنا الى بيت الهولنديين. انه بيت جميل تحيط به خمسة بيوت اخرى، اثاثها من قصب السكر. ورأينا فيها المعصرة، وذلك لصناعة ما يدعى بخمر القصب، وايضا الفرنجورين وهو مشروب روحي ابيض قوي وطيب، لكن رائحته مزعجة لمن لا يعرفه. ورأينا في الخارج ممرا واسعا وجميلا بشكل عريش من البرتقال ومن جهة اخرى حديقة كبيرة يحيط بها شجر الليمون تشكل في الوقت نفسه سياجا لرد القردة. وكل ذلك تكتنفه البساتين المزروعة بالبطاطس. وايضا قادنا الهولنديون لرؤية المساكن المجاورة حيث لاحظنا تقريبا الشيء نفسه. واخيرا غابة جميلة من شجر الابنوس. وبعد عودتنا تناولنا من لحم الغزال وشربنا من الفرنجورين. وفي الغداة بينما كنت اتنزه في البستان تمتعت برؤية ما يزيد عن الاربعة الاف قردا وراء السياج منتشرين في الحقل المجاور. وكانت تلك القردة من الحجم الصغير. وفي اقل من لحظة استطاعت ان تنزع من الارض برجليها الامامية وهي جالسة على مؤخرها كمية كبيرة من البطاطس وما ان ينسحب البعض حتى يأتي البعض الاخر ليقوم بالعملية نفسها وقد كانت اللعبة ستدوم طويلا لولا ان اتت الكلاب فجأة مما جعل القردة تلجأ الى الغابة.

ثم ذهبت اتنزه بعدها الى الساقية الصغيرة حيث التقى رجالنا بالحاكم. ورأيت سهولا جميلة للغاية وعددا من الغابات مع بعض المساكن المهجورة. ولما عدت الى جانب صيادينا كم تفاجأت اذ رأيت الدجاج يشوى على النار. قيل لي انها من الديكة والدجاج التي اتي بها من اوروبا والتي اصبحت هنا وحشية. فاذا احتجت الى لحمها عليك ان تذهب لصيدها.

تأكل تلك الطيور نوعا من الفلفل الصغير ومن الحبوب ذات الطعم الحاد فحبة واحدة منه تكفي كالفلفل المطحون لاعطاء النكهة للحم. وفي الغد طلبت ان نقطع نوعا من الخشب الجيد الذي يصلح لصنع الاثاث ثم رجعنا الى مراكبنا مرورا بالغابات التي تملأ المنطقة كلها حتى شاطئ البحر.

في حين كان رجالنا يواصلون صيد السمك بكميات كبيرة مما يشكل عونا كبيرا للبحارين الذين سئموا اكل لحم البقر والودك المالح. واما ما كان لدينا من لحم الغزال فقد احتفظنا به للمرضى ولتزين مائدة الضباط وغالبا كان يستبدل لحم الغزال بالسمك. وكنا نملح منه الكثير ونجففه بتعريضه للشمس، ونأكله في اسفارنا.

استعاد اخيرا مرضانا عافيتهم، وانهينا اصلاح مراكبنا، واخذنا حاجتنا من ماء الشرب ومن الاخشاب. وكنا عند وعدنا الذي قطعناه مع حاكم الجزيرة، فأعدنا له كل الاسرى الهولنديين واستأذناه بالرحيل. فتركنا ميناء بيتربوتد في السادس عشر من كانون الاول عام ١٧٠٩.

جزيرة بورن او ماسكاران

ارست سفينتنا هذه المرة ايضا خارجا، واستخدمنا الاشرعة للذهاب الى جزيرة بورن او ماسكاران، التي يسكنها الفرنسيون. وجدت نفسي على متن سفينة السيد شامبلوريه، الذي اجبرني على البقاء فيها، اذ كانت سفينتنا بعيدة. وفي اليوم التالي وصلنا الى ميناء سان دونيس الخطير، ولكنه الميناء الوحيد الذي تستطيع المراكب الكبرى الوصول منه الى جزيرة بورن.

داست اقدامنا الارض في اليوم التالي، أي في التاسع عشر من الشهر نفسه، اطلقنا سبع طلقات مدفعية تحية، بعد ان ارست سفينتنا في هذا الميناء، حيث رد على سلامنا بمثله من قلعة فيه. واتى ضابط للترحيب بنا يرافقه بعض من السكان، اما نزولنا فلم يكن بالامر السهل بسبب حصى متحركة تملأ الشاطئ، كبيرة الحجم في معظمها وتصدر عنها اصوات غريبة عندما يضربها موج البحر.

السيد شارانفيل حاكم جزيرة بوربون

ذهبنا للقاء الحاكم الذي رحب بنا ترحيبا حارا، وامر لنا بتقديم الطعام كما وقدم لنا عدة زجاجات خمر من النوع الجيد الطيب، قضينا الليل عنده، وبقينا في ضيافته سحابة اليوم التالي نتزود ببعض المؤن ونشتري بضعة ثيران. وكان الابحار من هذه الجزيرة صعبا للغاية.

رأينا في ذلك اليوم مراكب اخرى كانت قد تلقت اوامر منا بالذهاب الى جون سان بول الذي لم يكن معرضا كثيرا للرياح، كما وان الارساء فيه اكثر سهولة، وليس فيه الا الرمال.

هبت في اليوم التالي رياح شديدة، سببت هيجانا قويا في البحر. ومن اعلى البيت رأينا زورقا يترك سفينتنا ويتبع الطريق الذي نزلنا فيه. ظننا في اول الامر ان هناك شيئا طارئا، لكن في الواقع كان التحرك لاعلامنا ان سفينتنا شردت عن مرساتها وانها لم تعد بالتالي بأمان.

اصطحبنا معنا من الجزيرة العربية فرنسيا قادما من الهند. هذا الفرنسي نزل الى القارب بملء ارادته، وقد عزم على ان يلقي بنفسه في البحر، اذا استحال على قاربه الاقتراب بسبب رداءة الاحوال الجوية، وان

يتابع المسافة سابحا لاخبارنا بالحالة التي آل اليها المركب، هذا ما كنا
رأيناه من الشاطئ حيث التجأنا.

لم نر ابدا سباحة افضل من سباحة ذلك الفرنسي، ما قام به كان
مغامرة ومجازفة، لاننا عندما بدأنا بالحديث عن الموضوع، كان البحر
هائجا هيجانا قويا وامواجه تضرب الشاطئ بعنف وتحمل اليه احجارا
كبيرة، كنت قد تحدثت عنها سابقا. وهي وحدها كانت تكفي لتهشيمه. اثناء
ذلك حاول عدة مرات ان يتمسك بأي شيء لكن الامواج كانت تعود من
جديد لتأخذه بطرفة عين الى عرض البحر.

اعتى بحارة هذه المنطقة، ضاعت محاولاتهم سدى في انقاذه، فقد هذا
المسكين كل قواه، تقاذفته الامواج الى حين واختفى اخيرا عن عيوننا. كان
ذلك مشهدا محزنا للغاية بالنسبة لنا، وحادثا اسفنا له كلنا الاسف الشديد.

بواسطة لغة الاشارات، امرنا الزورق الذي بقي في البحر بالتوجه
نحو المركب. ونظرا لاستمرار الاحوال الجوية السيئة اشرنا اليه من جديد
بالرحيل في الحال الى ميناء سان بول، وصممنا على الذهاب الى نفس
الميناء عن طريق البر عبر الجبال.

قضينا تلك الليلة ايضا عند الحاكم. ولعدم توفر الخمر، فقد شربنا
نوعا من خمر العسل واستسغنا طعمه، فعندما يصفى تصفية جيدة، فإن له
طعما لذيذا كأفضل خمور مالاغا.

وفي صباح الغد وبعد وجبة افطار شهي، عزمنا على المسير. وارفق
الحاكم مرافقتنا على الطريق، وقد حملنا راية تشير لبحارة المركب، بان
يرفعوا الاشرعة دون توان، واننا سنذهب الى الميناء الاخر، ففهموا ما

اشرنا اليهم ونفذوه على مرأى منا. وكان من الشاق جدا بالنسبة لنا، بعد اربعة استراحات تحت الاشجار، ان نصل الى قمة الجبل.

اما من جهتي فاني لم اتصور ابدا اننا سنتنقل سيرا على الاقدام، ولذا لم يكن بحوزتي الا حذاء كحذاء قراصنة البحر، مصنوع من جلد الغزال تعلوه قطعة نسيج ولا يصلح البتة لتسلق الجبال. كان الحاكم قد اعطاني اثنين او ثلاثة عبيد، ليحملوني في سرير معلق، لكنني لم اكن اريد ان اجازف بنفسي في وسيلة نقل كهذه وذلك بسبب وعورة الدروب المليئة بالجروف والممرات الخطيرة.

بعد ذلك الجبل مررنا بأرض يصعب اجتيازها مليئة بالحجارة، ثم مررنا على جبل وعر اخر حيث توجب علينا النزول مسافة فرسخ ونصف الفرسخ اذ كان من المستحيل الا السير على الاقدام والاتكاء على عصي كبيرة. وهكذا وصلنا الى مكان يدعى البارك، وكنا قد اجتزنا نصف المسافة. فاخترنا مكانا تحت الاشجار لنأكل ونرتاح لكننا لم نجد هناك قطرة ماء.

حتى الان اجتزنا جبالا تغطيها الغابات وشاهدنا في طريقنا بعض اشجار الليمون، والعديد من اشجار النخيل التي قطعت رؤوسها، كل ذلك ونحن نتابع خط سيرنا على الشاطئ المليئ بالاحجار الكبيرة، كما في ميناء سان دونيس. ولم يكن هناك طريق اخر، سوى هذا الممر الذي جعلته الامواج صعب العبور وهي تتكسر على الصخور وتمتد حتى اقدام الجبل الذي يحد هذا الشاطئ. ولذا كان يتوجب على المرء ان يكون ماهرا جدا وشديد الانتباه في العبور، وذلك بالقفز من صخرة الى اخرى في انتظار عودة الامواج. صادفنا اثناء ذلك نساء وعبيدا صغار السن، يقطعون كل

هذا الطريق والطريق الجبلي ايضا بسهولة مذهلة وهم حفاة، اضافة الى التعب. ولما تركنا الشاطئ توجب علينا ان نتشجع لتسلق جبل اخير شاهق جدا يسمى بالتاج (تعز)، تسلقا يحوجنا الى التمسك بقوة بالايدي او بالارجل على السواء.

وصلنا اخيرا الى قمة ذلك الجبل، وقد انهكنا التعب وهدنا الاعياء، ودون ان نتمكن من ايجاد قطرة ماء. تملكني العطش والظمأ. وكان يجب علينا استعادة القوة والشجاعة اذ لم يبق امامنا الا نصف فرسخ لنصل الى المكان الذي سنقضي فيه ليلتنا. ولحسن الحظ ولشدة بحثنا على قطرة ماء ذات اليمين وذات الشمال، وجدنا الماء اخيرا مما اعاننا على متابعة ما تبقى لنا من المسير.

هبط الليل قبل ان نصل الى القرية للمبيت. هذه القرية التي منحناها اسم "اهلا وسهلا"، وجدنا فيها حاجتنا من الطعام للعشاء، ومن الفرانجورين وخمر قصب السكر.

وفي الغد وجدنا أحصنة نقلتنا الى سان بول، وهي قرية تبعد مسافة تربو على فرسخ واحد، مأهولة بالفرنسيين. طرقاتها وعرة جدا. لا تقطع فيها فرسخا واحدا، الا وتقطع مقابله فرسخين في فرنسا.

يقع ميناء، او بالأحرى جون سان بول، في طرف سهل يحده الجبل الذي نزلناه مؤخرا، ويشكل جزءا منه رأس يمتد في البحر.

مساحة هذا السهل تبلغ فرسخين طولا وبالكاد نصف الفرسخ عرضا، في وسطه بركة كبيرة وعميقة من الماء العذب، يسبح فيها الكثير من طيور الاوز والبط، وترى بالقرب منها خراف ومواش اخرى. في هذا الحي كل شيئ حسن، الطيور متميزة، وهي من النوع الصغير للغاية وتباع

١١١

باسعار مرتفعة تضاهي اسعار الخنازير. وتنتشر فيه السلاحف البرية والبحرية بكثرة، والسمك فيه وافر، بيد ان صيده من المستحيلات لا يصح الا بالصنارة وعلى زوارق محلية ليست الا جذوع شجر محفورة، لا تحمل اعباء ثقيلة ولا تستطيع الذهاب الى عرض البحر.

اثناء ذلك، صادفنا اناسا من سود مدغشقر، عبيدا في ماسكاران، من الذين وجدوا سبيلا للنجاة، باستخدام احد هذه الزوارق للتنقل من جزيرة الى اخرى، فنجى البعض وهلك البعض الاخر. وقيل لنا انه منذ ذلك الحين، قامت شركة (*رويال دي فرانس*)، التي كانت تملك ماسكاران، بمنع السكان من شراء العبيد في مدغشقر، علما بان هؤلاء العبيد هم من اخطر المجرمين في العالم.

فقد اوقف مؤخرا اربعة منهم، وكبلوا بالحديد، متهمين بالتآمر مع كثير من مجرمين آخرين، على قتل الحاكم وعدد من الضباط وشخصيات من وجهاء البلد، وكانو قد قرروا تنفيذ هذه الجريمة عشية الميلاد في الماضي القريب. ونحن كنا قد تلقينا معلومات حول تلك المؤامرة.

حضرنا قداسا كبيرا يوم الاحتفال بالعيد، وكان هناك جمهور من عامة الشعب، وشاهدنا نسوة شقراوات ذوات بشرة نضرة كنساء فرنسا، نحيلات الاجسام، خفيفات الثياب ومسرحات الشعر على الطريقة الفرنسية. منهن المأثورات يلبسن لباسا مخرما، وكثير منهن حفاة الارجل. الرجال والنساء هنا على حد سواء كرماء يفعلون الخير لدرجة انهم يوقفونك عندما تمر من امام منازلهم ويدعونك للدخول وتناول شيء منعش معهم.

استلطف ضباطنا جدا هذه العادة عندهم، الا انه يجب على من يلبي هذه الدعوة ان يحمل اليهم هدية من البانش، وهو مشروب روحي غالي

الثمن في هذا البلد. فزجاجة الكحول تباع غالبا بسعر يصل الى قرش ونصف القرش.

سكان هذا الميناء لم يبنوا منازلهم حسب خطوط مستقيمة، وبالتالي فإنها لا تشكل شوارع كما في اية مدينة. بيوتهم مبنية كلها من الخشب فقط وعلى مستوى واحد، بسبب كثرة الاعاصير التي تقلب كل شيء رأسا على عقب. ولذا فان بناءها مرتفع عن سطح الارض.

يبلغ محيط هذه الجزيرة نحو ستين فرسخا تملأها الجبال وتغطيها الغابات. ويوجد في مناطق منها سهول خصبة يزرع فيها القمح والارز. يقوم العبيد بكل الاشغال الريفية، في حين لا يعمل السكان الا نادرا. رأينا اشجار نخيل رائعة الجمال منتشرة بين الاشجار الاخرى، لكنها غير مثمرة، وقد قال لي الحاكم انه كان يوجد على الاكثر الفا نسمة في الجزيرة كلها، جزيرة يطيب العيش فيها، لذلك شبهها بعضهم بالجنة الارضية. لكنها لاتملك أي نوع من التجارة، ما عدا مرور الزوارق الفرنسية القادمة من الهند. وصل اليها الفرنسيون عام ١٦٥٠.

منذ اليوم التالي للاعياد، بدأنا بتحميل الثيران في المركب مع كل المؤن الاخرى، لنغادر بعدها فورا، بالرغم من كرم اخلاق الحاكم والسكان الذين ارادوا ان نبقى في ضيافتهم عدة ايام اخرى.

وحيث لم تدم اقامتنا طويلا في ماسكاران، فإني لم اتمكن من معرفة كل ما هو مهم فيها. لكن بعد عودتي فقد سلمني صديق لي التقرير الذي سأضيفه الى ما قلت سالفا عن هذه الجزيرة. ولا يمكن ان اكون على اطلاع افضل من هذا. فالمصدر الذي اقتبس عنه المعلومات قد جمعها من رسائل السيد دي فيلر وتقاريره، اذ كان حاكما للبلاد لصالح شركة الهند

الشرقية مدة ثماني او تسع سنوات، وقد زار الجزيرة كلها بعناية خاصة وتفحصها تفحصا جيدا ليجعل منها المستعمرة الصالحة، المعروفة سابقا، ولتسير الى الافضل في المستقبل، او بالاحرى لتكون مرفأ مهما لاعادة تصدير بضائعنا نحو الشرق.

وبالرغم من كثرة الذين كتبوا عن هذه الجزيرة، فإن احدا لم يأت على ذكر النوادر كالتي سنتعرف اليها هنا والتي تبدو امورا خارقة للطبيعة.

تقع جزيرة بوربون في المحيط الاثيوبي او الهندي، تحت الخط المداري الجنوبي تقريبا وشرق جزيرة مدغشقر. وهي تبعد عنها ما يقارب الثمانين فرسخا. ولا يبدو لنا ان القدماء كانوا يعرفونها، بل كانت غير مأهولة عندما اكتشفها البرتغاليون بعد ان تجاوزوا رأس الرجاء الصالح. وقد دعوها "ماسكارني" لان رئيسهم كان يسمى ماسكارني. والعوام لا يزالون يدعونها بهذا الاسم حتى يومنا هذا، كما ويدعون اهلها ماسكاران.

وبالتدقيق لم تصبح الجزيرة مأهولة بالسكان الا مع بداية عام ١٦٥٤ عندما علم النبيل الفرنسي السيد فلاكور حاكم منطقتنا في جزيرة مدغشقر، ان ارض جزيرة ماسكاراني، ارض طيبة خصبة وهواءها عليل بشكل منقطع النظير. فأرسل اليها ستة او سبعة اشخاص من الأسرى المصابين بامراض سارية كانوا اذ ذاك في مدغشقر، وسرعان ما برؤوا منها بسهولة في جزيرة ماسكاراني مما شجع مرضى اخرين بالذهاب اليها. ومنذ ذلك الحين صارت تدعى بجزيرة بوربون. ولكنها لم تصبح منشأة هامة الا عندما استولت عليها الشركة الملكية للشرق نحو عام ١٦٨٠، وسكنها الفرنسيون تحت رعاية الملك ولذا فهي لاتتكلم الا اللغة الفرنسية ولا تنتمي الا الى المذهب الكاثوليكي الذي يهتم بنشره رجال دين علمانيون.

تمتد هذه الجزيرة طولا اكثر من امتدادها عرضا، ويبلغ محيطها حوالي ٦٥ فرسخا، وتتجه من الغرب الى الشرق. ارضها منبسطة على كل الساحل، وتصل سهولها الى اقدام الجبال التي تشكل وسط الجزيرة حسب طولها، تتخللها اودية صغيرة وتتبع منها انهار تروي الاراضي.

ينقسم السهل الى ثلاثة احياء : نعرف منها سان دونيس وسان بول، وسانت سوزان، وقد بنى فيها السكان المنازل والمقاهي بشكل لا يكون بالتالي لا مدينة ولا بلدة بل هناك اراض شاسعة مستصلحة ومزروعة، تجنى منها محاصيل القمح والارز والقمح الاسباني والذرة البيضاء والكثير من الخضار.

لايبلغ عمق الارض التي تشكل سهول البلد، الا نحو قدمين، مما يجعلها تتعب بسرعة ويجب ان تترك بورا لترتاح. ونجد اراض خصبة اكثر عمقا في الجبال، وهذا امر مثير للدهشة حقا. فمن يملك قسطا وافرا من الشجاعة والوسائل اللازمة لاستصلاح الاراضي فسيجني كل الخير من تعبه.

في عام ١٧٠٨ كان يبلغ عدد سكان الجزيرة تسعمائة نسمة، يتساوى فيهم عدد ارباب العائلات مع عدد الاولاد وعدد العبيد. الحاكم وكاتب العدل والوكيل لشركة الشرق (Compagnie d'Orient). تقتصر تجارتهم فيما عدا تلك التجارة الصغيرة بين السكان، على ارسال قارب الى بونتشري على ساحل كورومانديل، وعلى استقبال المراكب المتجهة الى الشرق او العائدة منه، وتزويدها بكل الاحتياجات. يربح منها البائع ربحا وافرا.

هواء هذه الجزيرة هواء عليل مفيد للصحة، ويعتقد البعض ان من يولد على ارض هذه الجزيرة لا يهرم كالاخرين، ويعمر البعض حتى مائة عام، والامراض الكبرى في تلك الجزيرة هي المغص، وحوادث تدعى بداء الكلب، يعالج المصاب بها بكي كعب قدمه بالحديد المحمى، كما ولا يرى على الاطلاق حشرات سامة في هذه الجزيرة،

هناك بركان مخيف باتجاه الشرق، جبل يتقيأ نارا ولهبا، ويسبب اضرارا جسيمة في هذه الجهة او تلك، نيرانه دائمة الاشتعال لاتخمد ابدا، تحرق كل ما يحيط بها وتملأ المنطقة بالحجارة الذائبة، وهي حادة جارحة كحجارة البارود. اراض صحراوية هائجة لاقيمة لها البتة، ولذا تدعى الارض المحروقة. اما الجبال فالارض فيها افضل منها في السهول، وطقسها بارد جدا، ولا يخلو منها الجليد ابدا، وهذا شيء يثير الدهشة لأنها تقع تحت الخط المداري.

ومن بين هذه السهول الممتدة على الجبال، هناك سهل ملفت جدا للنظر، لم يأت على ذكره احد من قبل، يسمى بسهل الكافر نسبة لجماعة الكافر، عبيد سكان الجزيرة، الذين كانوا يلجأون اليه ويختبؤون فيه هربا من سادتهم.

من ساحل البحر نصعد رويدا رويدا مسافة سبعة فراسخ، لنصل الى هذا السهل عبر درب وحيدة، بمحاذاة نهر سانت اتيين. ومن الممكن ايضا استخدام الحصان، فالارض تشكل سهلا منبسطا مسافة فرسخ ونصف، وتغطي اسفله اشجار باسقة وجميلة، تستخدم اوراقها المتساقطة في تغذية السلاحف المتواجدة بكثرة في المنطقة.

ويمكن تخمين ارتفاع هذا السهل بفرسخين فوق الافق، كما ويبدو من الاسفل ضائعا بين الاراضي الجرداء. يبلغ محيط السهل اربعة او خمسة فراسخ. البرد لايطاق فيه والضباب مستمر يسقيه كماء المطر ويمنعك من الرؤية على بعد عشر خطوات امامك، لذلك فالرؤية اوضح في الليل منها في النهار، لكن الجليد يقتحمه كليا وعند الفجر قبل شروق الشمس يرى وكأنه سهل من الجليد. كما ومما يدهش حقا هو مشاهدة تلك الارتفاعات في الارض المنحوتة على شكل اعمدة، او اسطوانات شاهقة مذهلة. فهي تضاهي بلا شك ارتفاع ابراج نوتردام دي باريس، دقت في الارض وكأنها اوتاد لعبة البولينغ، يشبه بعضها البعض حتى اننا نخطئ في عدها فاطلقنا عليها اسم "المسامير الجوفاء"، ولذا حين كان البعض يريد التوقف للراحة بالقرب من احدها، فيما يواصل الاخرون المسير دون الاستراحة فكان على هؤلاء الا يبتعدوا اكثر من مائتي خطوة خشية الا يجدوا المكان الذي تركوه.

ولكثرة عدد هذه "المسامير الجوفاء" وشدة تشابهها وبسبب وضعياتها المتماثلة الى حد بعيد، فإن الكريول، وهم اهل البلد المولودون فيه يخطؤون ايضا فيها. ولذلك تلافيا لهذا الامر، فإن اية مجموعة من المسافرين إذا توقفت عند احد هذه الاعمدة، واراد بعض منهم الابتعاد، فإنهم يتركون شخصا يشعل نارا او دخانا ليدل به الاخرين على المكان. اما اذا كان الضباب كثيفا كما في اغلب الاحيان فيحجب رؤية النار او الدخان، فإنهم يتزودون ببعض القواقع الكبيرة، يأخذ من سيبقى بالقرب من العمود واحدة منها ويأخذ الاخرى من يريد الابتعاد، وعند العودة ينفخ بقوة في هذه القوقعة كما لو كان ينفخ في بوق، فيصدر عنها صوت حاد جدا يسمع عن بعد، ويجيب احدهم الاخر، وهكذا فان كانوا على وشك الضياع

فإنهم يلتقون بسهولة من جديد وبدون وسيلة الحيطة والحذر. هذه فإنه يسهل الوقوع في الفخ.

وفي السهل هناك الكثير من اشجار الحور الدائمة الاخضرار، واشجار اخرى تغطي الطحالب جذوعها واغصانها الكبرى على ارتفاع ذراع. اشجار يابسة بلا اوراق، رطبة لا يمكن استخدامها كحطب، واذا ما تمكنا بعد عناء من اشعال بعض الاغصان، فإنها تعطي نارا سوداء اللون وبلا لهب ودخانا محمرا يدخن اللحم بدلا من ان يشويه. وكان من الصعب ان نجد مكانا في هذا السهل نشعل فيه نارا فنبحث في المرتفعات حول تلك الاعمدة. فأرض السهل رطبة للغاية ينبع منها الماء في كل مكان، نمشي في وحلها دوما مبللي الارجل. ورأينا فيه عددا كبيرا من الطيور الزرقاء التي تعشش في العشب وفي السراخس المائية.

لم يكن هذا السهل معروفا قبل ان يهرب الكافر وينزل منه. وكان علينا ان نسير على الدرب الذي صعدنا منه، ما لم نطش ولم نحذر فنتخذ طريقا اخرى، وعرة جدا وشاقة وخطيرة للغاية.

من سهل الكافر، نرى جبل الثلاث، نسبة الى قممه الثلاث، وهو اعلى جبل في جزيرة بوربون ومنه ربما تنبع كل انهارها، وهو وعر جدا شديد الانحدار من كل جوانبه بحيث اننا لم نتمكن من تسلقه.ويوجد ايضا في هذه الجزيرة سهل اخر يدعى بسهل سيلاوس، وهو اكثر ارتفاعا من سهل الكافر ولكنه ليس افضل منه. فالوصول اليه شاق جدا.

وجزيرة بوربون مليئة بالاشجار والاحراج، اشجارها مختلفة عن مثيلاتها في اوروبا. انواع باسقة او ضخمة الى حد يثير الدهشة. ونجد

على تلك الجزيرة شجر الابنوس، الذي يؤلف لب الشجرة فقط، ولا يتجاوز قطرها اكثر من نصف القدم.

وتنمو على هذه الجزيرة ايضا اشجار اخرى يستخدم خشبها لصنع براميل للمشروبات من النوع الجيد، كما ويجنى منها الكثير من الصبر، ولولا تلك العناية الفائقة التي يتطلبها شجر الصمغ، فقد كان من الممكن ان يجنى منها كمية كبيرة جيدة، الا انها مهملة.وتبلغ اشجار تاكاماك وبنجوان ارتفاعات كبيرة مثلها مثل شجرة *النات*، كما ونجد فيها أي في الجزيرة طيور النحام التي يتجاوز طولها قامة رجل.

وينقص هذه الجزيرة انها لا تملك ميناء ولا مكانا مناسبا لتأسيس ميناء. لها مرسيان مكشوفان، الاول في سان بول والآخر في سان دونيس، وهما الوحيدان اللذان تستطيع السفن التوقف فيهما والاستراحة قليلا. لكن الحذر ثم الحذر من الرياح الموسمية ومجابهة الاعاصير، تلك العواصف التي تكدر هدوء البحر في أوقات متفرقة. نجد على تلك الجزيرة نهرا يثير الدهشة للغاية اذ ان قعره مغطى ومرصوف على سبيل المبالغة، بسمك الانقليس من النوع الطويل والممتلئ. ويسمى النهر بنهر الانقليس نسبة الى هذا السمك.

اعصار يسبب عاصفة

في المساء الذي سبق ابحارنا، كانت السماء صافية نسبيا في مثل هذا المكان، هذا ما لاحظناه. لكنها بدأت تتلبد بالغيوم وغشاها الضباب الذي بدأ يتحول الى مطر خفيف، حدث ذلك بمعزل عن أي ريح، وكان هذا اول دليل على إعصار يتهيأ للحدوث.

واثناء الليل سمعنا ضجة كبيرة كأنها أحجار تتدحرج على الجبال، ووصل اثرها رجال من الشركة قالوا لنا انهم رأوا السواقي تفيض والعصافير تترك الغابات، حيث تسمع اصوات مخيفة ومفزعة.

جهزنا انفسنا للمغادرة ومنذ بزوغ الفجر صعدنا على عجل الى مراكبنا، فامطرت الدنيا وارعدت كثيرا، وكان الهواء خانقا. اما انا والسيد شامبلوريه فقد استأذنا الحاكم، ونزلنا كل على حدة في زوارق حملتنا الى مركبنا. انا استخدمت زورق ضابط الساحل، لأنني كنت ملزما بترك زورقي لنقل ضباطنا الذين كانوا ينزلون الى البر بالرغم من قرب هبوب العاصفة، ظانين ان الامر مسل للغاية.

بدأت الريح تعصف بقوة وتزداد هيجانا من وقت لاخر، وارتفعت امواج البحر وابعدت المراكب، ولم يكن باستطاعة الاعصار ان يظهر بشكل اكثر انفتاحا، فالسماء تلبدت بالغيوم السميكة والمنخفضة، وكنت حينها على متن المركب.

لحسن الحظ كنت قد وصلت اليه مبكرا، لتجهيز الاشرعة العلوية، وطلبت مسبقا ان توضع الحبال في الرافعة الرحوية. وعندما رأينا مركبنا يتراجع الى الخلف، امرت حالا بقطع الحبل ورفع الاشرعة العلوية الى نقطة معينة، وتجهيز صاري المؤخرة الذي تمزقه الريح.

في تلك الاثناء وجد السيد شامبلوريه نفسه في العراء معنا وجرى على جانب السفينة ليسبقنا، لكنه لم يتمكن من ذلك خشية المجازفة بالاصطدام بنا.

ونجحنا والحظ حليفنا وتغلبنا على الريح، وها هو مركبنا الذي يديره جيدا طاقمه ينجو اخيرا، ومخاطر اخرى تعتريه، لأننا لم نستطع الوصول دون ان نفقد مراكبنا الاخرى وان نضيع معها.

وعندما صرت خارج المرسى تماما، شددت الاشرعة العلوية للبقاء في الرأس، لأن الريح تصفر وتزداد قوة وعنفا باستمرار، واما ما دفعني الى ان الجأ الى عرض البحر، هو ان الريح في حال الاعاصير تدور من وقت لاخر بشكل نصف دائري.

وصل ضباطنا في تلك الاثناء بعد عناء وخطر داهمهم، وقد بللهم المطر وامتلأ زورقهم بالماء مما حملهم على تركه وذلك بقطع الحبل الذي كان يربطه.

كنا ما زلنا نرى مراكبنا الاخرى في المأزق ذاته الذي وقعنا فيه. اعترض السيد شامبلوريه الطريق ووقف ينتظر زورقه الذي كان قد ذهب لانتشال المرساة. ولم يكن بامكانه الوصول الى المركب دون أن يعرض نفسه للخطر. فان اسرع يخشى ان يضيع في عرض البحر، لكنه تمكن اخيرا من الوصول الى مركب الناجين الذي كان ينتظره لحسن الحظ لينجده.

المطر ما زال ينهمر بنفس الغزارة، والريح ما تزال تعصف بذات القوة. بللني المطر لدرجة اجبرتني على الذهاب الى غرفتي لتبديل ملابسي. في تلك الاثناء امر ضباطنا بدون تحفظ بالانطلاق والريح وراءنا. وعندما صعدت على متن مركب *غيارد*، لم اعد ارى مراكبنا الاخرى. فعدنا الى العراء لعلنا نراهم ثانية. ومنذ ذلك الحين لم يعد هذا الامر ممكنا.

في صباح اليوم التالي تضاءلت شدة الريح بعض الشيء، مع ان البحر بقي هائجا مرتفع الموج. ذلك الاعصار الذي سبب بلا أي شك اضرارا جسيمة في البر كمثلها او اكثر في البحر، الحق بنا ضررا وسبب لنا الاذى بالخصوص. فلم يكن بامكاننا انقاذ الا اثنين من الثيران التي كانت على متن المركب، بينما هلكت الثيران الاخرى اثناء الاعصار. وبلا جدوى تم تمليح اللحوم ولم يكن بالامكان الاحتفاظ بها.

انقذنا اربعين من السلاحف البرية، ولم نقدم لها الطعام ظنا منا انها تتغذى مما لديها من الشحم.

مرت بنا أحوال جوية سيئة ونحن نعبر رصيف الابر، الهواء معاكس والبحر هائج. بقينا خلالها يومين طي القلوع يقودنا التيار. التقينا بمركب دانمركي قادم من كورومانديل، حيث تملك الدانمرك وكالة تجارية في ترانكبار، واستطاع ذلك المركب ان يتكلم معنا اخيرا، بالرغم من الطلقات المدفعية التي اطلقناها عليه، فإنه كان يتلافاها قدر المستطاع ويأمل منا القبول برؤية رايته، وفي نهاية الطلق المدفعي الذي بدأ بتخريب صواريه، انتهى الى الوصول الينا بالرغم من الريح، وسؤالنا من اية وجهة اتينا. كان لدينا مركب بريطاني، وكنا نجبره على وضع زوارق النجاة الخاصة به في الخارج، ولم يكن بمقدوره الامتناع بحجة ان الطقس جميل وان البحر هادئ.

تفحصنا جواز سفره الصالح لمدة اربع سنوات، وكتب وكالة ترانكبار التي كان يرسلها المدير الى شركة الدانمارك (كومباني دي دانمارك)، كما وقرأنا العديد من الرسائل واحتفظنا منها بالتي كانت موجهة الى بريطانيا وهولندة، التي تتضمن شكاوى من اصحاب سفن فرنسية ومنا

خصوصا. وتقول تلك الرسائل ان ثلاثة قوارب من سان مالو كانت تعكر صفو تجارة البلدين في بحر الهند، واذا لم يعالج الامر سيؤدي ذلك الى خسائر فادحة. وتضيف رسالة ان اربع سفن انكليزية اجبرت على ان تعود ادراجها الى الميناء وان تضع ما تملك من المال ارضا خوفا من ان تجبر على ذلك. وبعد ان ارسلنا الصندوق واوراق الوكالة وكل الرسائل التي لا تعنينا، قمنا بوداع الضابط الدانمركي، الذاهب الى رأس الرجاء الصالح، متمنين له رحلة سعيدة.

جزيرة الصعود

سنمر فيما بعد على مستوى هذا الرأس، لكن على بعد اكثر من ستين ميلا نظن اننا سنشد الرحال الى جزيرة الصعود، آملين ان نجد فيها رفاقنا، او نشتم اخبارهم، وان نحصل على الكثير من السلاحف المتوفرة في الجزيرة بكثرة.

لكننا لم نعثر ابدا على تلك الجزيرة. عادة يترك فيها عند قدم أي صليب ما، زجاجة محكمة الاغلاق وضع بداخلها رسالة تدل على مرورنا وتنقل للاخر ما نريد قوله. لم يكن هناك ما يستحق الذكر او ما يثير الدهشة في ابحارنا، الى ان عبرنا الخط. نسيم عليل ورذاذ خفيف انعشنا وابهج قلوبنا. لم نكن نشعر بذلك الحر الذي رافقنا في طريقنا من اوروبا. اعتقد ان هذا التغيير لم يشعر به احد غيرنا، فقد كنا معتادين على الحر الحارق في سواحل بلاد العرب، فلم نعد نجد بعد ذلك ما نشكو منه.

تحت مستوى اربع وثلاثين درجة من شمال الخط، وضحت لدينا رؤية مركب كنا قد فقدناه اثناء الليل، كان يتلوى ضد الريح مثلنا، متسكعا،

تعابه التيارات المعاكسة، مما جعلنا نظن انه يتجه نحو اوروبا. رأيناه
بية في اليوم التالي واقتربنا منه. حسبت انه قد يكون واحدا من رفاقنا،
ما عرفناه لاحقا. وبينما كنت اخذ قسطا من الراحة، لم يغير رجالنا خط
يرهم، فاصبحنا لم نعد نراه بعدها.

جزيرة أسور

عبرنا بسرعة مياه جزر اسور ورأينا الكثير من تلك الطيور التي
سمى بطيور الكالكيلو والدادان، مما جعلنا نظن اننا لا نبعد كثيرا عن
لبجي، وهي ثلاث صخرات موجودة في مياه هذه الجزر.

وبعد مرور عشرة ايام او اثنتي عشرة يوما رأينا مركبا. ولما كان
يتابع خط سيره دون ان يخشى شيئا، يحمل راية اسبانية وجواز سفر
نكليزي. استطعنا الوصول اليه في وقت قصير،، بينما كانت رايتنا
نكليزية.

انزل زورقا الى البحر ليعلمنا انه قادم من سان سيباستيان، وليرينا
رسالياته الى تلك المنطقة. ولزيارته استخدمنا زورقه، وعلمنا ان كل
طاقمه كان من منطقة البسك في فرنسا. لم يمض على ذلك المركب اكثر
من ثمانية ايام منذ خروجه الى صيد الحوت، وقد اطلعنا على نقطة ضبطه
اليومي (تقدير يومي للطريق الذي يقطعه مركب ما، تحدده نقطة موجودة
على الخريطة البحرية) وباتباع تلك النقطة، يمكن تقدير مكاننا على مسافة
تبلغ اربعين فرسخا غرب واترفور، وبناء عليه فقد قومنا مسارنا ووجدنا
اننا اخطأنا في تقدير طريق مركبنا، الذي كان يسير بسرعة ابطأ مما كنا

نعتقد، لأننا لم نتمكن من تنظيفه تنظيفا كاملا من الحصى التي كانت عالقة في اسفله.

واعترضت الريح طريقنا تماما مدة ثمانية ايام، دون ان نتمكن من الوصول الى اليايسة. استهلكنا حتى الان برميلين من البسكوت، كان قد اعطانا اياها المركب الاسباني الذي قد تحدثت عنه فيما سبق، والذي كان قد اخبرنا ان الشتاء في اوروبا كان قارسا، وان ثمن القمح كان باهظا في كل مكان.

هدأت الرياح اخيرا وتابعنا سيرنا، وبعدها بيومين قمنا بقياس عمق المياه، فبلغ تسعين ذراعا، فعرفنا بذلك اننا على الرصيف الواقع خارج جزر السورلينغ على مسافة خمسين فرسخا منها.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، اكتشفنا وجود اربعة مراكب، ثلاثة منها وراءنا والرابع امامنا. اعلموني بذلك، وشاهدتهم بالمنظار، دون ان اتمكن من تمييز ومعرفة جسم البناء. طلبت دوما ان نسير الدرب ذاته. المركب الذي سبقنا كان يتابع دربه ايضا، ليجد نفسه بعد قليل على مرمى طلقة مدفعية من مركبنا، فشد اشرعته المربعة وطوى قلوعه المنخفضة.

في تلك الاثناء قدمت مرطبات لطاقمنا ليتهيأ للمعركة، لكن ذلك المركب بدا لنا وكأنه هولندي. وحين رأى استعداد مركبنا الذي لم يكن اقل شأنا منه، رفع اشرعته دونا عن رايته، وتابع سيره، وواصلنا نحن ايضا خط سيرنا فغاب عن عيوننا هو ورفاقه ايضا.

جزيرة وسان

وفي اليوم التالي أي السابع من ايار عام ١٧١٠ كان اليوم الذي تكحلت به أعيننا برؤية جزيرة وسان فاقتربنا منها. وكان عدد من ضباطنا قد حصلوا على بضاعة فضية كغنائم اثناء معاركنا الصغيرة، فلم يكونوا يحلمون الا بالرجوع الى برست فاقترحوا ذلك متذرعين بمصالحي الشخصية، اجبت بدوري ان حالتي الصحية الحرجة ومصالحي الشخصية، لا يمكنها ان تنسيني المصلحة العامة للشركة، التي كنت التزم بها اشد الالتزام كما يعلم الكل هنا. لكن وبما ان الريح مؤاتية، فلننتهز الفرصة.

من المؤكد ان من صالحي تماما العودة الى برست، لكنني كنت عاجزا عن اختيار هذا الطريق. قدرت انهم سيدفعون لي في سان مالو رسوما باهظة. فالشركة التي اديت لها كل هذه الخدمات على حساب مصالحي الخاصة، عاملتني بقسوة وخشونة، متجاهلة وعودها وكل خدماتي.

الوصول الى سان مالو

في طريقنا باتجاه سان مالو، شاهدنا مركبا مزودا بثلاثين مدفعا يغادر فوراً ويأتي مباشرة نحونا. استعد مركبنا مرة اخرى للمعركة، في تلك الاثناء وعلى مسافة فرسخ واحد، اخذ المركب قرارا اخر بالفرار عبر الدرب الذي قطعناه، حتى غاب عن نظرنا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر.

في صباح اليوم التالي اطلت علينا سان مالو وساحل كونشيه فامرت ان نعطي اشارات، وبدوره عجل الطرف المعني في ارسال قارب الى كبير موظفيه، فارسل الينا كتابا يفيدنا فيها انه امر بإدخال مركبنا، وارسل الينا ربانا ليفي بهذا الغرض. كنت قد اقتربت سلفا من المكان المسمى

الميناء الكبير، مخالفا نوايا الضباط السيئة والتي قد تحدثت عنهم آنفا، فقد تآمروا فيما بينهم وعلى رأسهم اكثرهم تمردا وتصميما، رجل لم ير له مثيل ابدا، قد اقسم على ان يقود المركب رغما عن انفي الى رأس فريليه وان يغرقني فيه، ومزمعا على ان ينزل هناك من يستطيع، ومهددا بكسر رأس من يحاول معارضته. اثناء ذلك وبالرغم من كل تلك الخطابات، كنت على رأس عملية الدخول الى الميناء، حيث ارسى المركب لحسن الحظ في اليوم الثامن من ايار.

صعد الطرف المعني والذي حدثتكم عنه على متن مركبنا، وبعد تبادل التحية والمجاملات الاولى، قلت له بوضوح وصراحة ان فلان وفلان من الضباط الماثلين امامه هم من موظفي الشركة غير المخلصين. وشرحت له تفاصيل كل الامر في منحى عنهم، واعلمته خصوصا ان المدعو غييوم سرو الملقب بالصليب، هو رجل وضيع وشرس وذميم الاخلاق، قد دبر المؤامرة التي حلت انا دون تنفيذها. وقد استولى على قطعة ذهبية يبلغ ثمنها نحو عشرين الف ليرة، كان قد دسها في صندوقه وخبأها فيه عن سابق عمد. وبناء عليه فقد استدعي القائد العام للبحرية، وبدأت امامه الاجراءات القانونية شكلا ضد غييوم سرو هذا، فاقتيد الى سجن المدينة، وانكر مدة يومين الاتهامات الموجهة اليه، وتمكن اخيرا اثنان من رجال الشركة من زعزعته عن طريق التهديد، فاعترف اخيرا ان لديه فقط وسط القطعة الذهبية، في حين نشر طرفاها. بناء عليه أمر بنقله الى السفينة وجاء معه هؤلاء السادة ليبحثوا عن الموضع الذي ادعى انه وضع فيه جزءا من القطعة الذهبية المزعومة. رأوا حقا المخبأ الذي

نتحدث عنه كما ووجدوا القطعة الذهبية كاملة دون أي نقص يذكر او أي تشويه او افساد.

وبعد ذلك بعدة ايام وصلت المراكب التي كنت قد تركتها، ولحسن الحظ ارست في الميناء نفسه. اما الشركة فقد كانت راضية كل الرضى على نجاح مشروعها.

رواية الرحلة الى المخاء

الى بلاط ملك اليمن، في جبال العربية، التي تمت في الارسالية الثانية في الاعوام ١٧١١- ١٧١٢-١٧١٣.

تشكلت شركة المفاوضين في سان مالو، هدفها الاساسي تجارة القهوة مع العربية السعيدة، والتي كانت متوفرة بكثرة اثناء الارسالية الاولى، كما اتينا على ذكر تفاصيلها. هذه الشركة لم تتأخر طويلا في استثمار ارسالية اخرى، فلم تحظ بأي نجاح يذكر، ولم تسترع اهتمام الجمهور مثلما حازت عليه الاولى.

وقد قامت الشركة بتجهيز اثنين من افضل مراكب هذا الميناء : مركب "السلام"، ومركب "السريع"، اللذان غادرا سان مالو في بداية شهر كانون الثاني من عام ١٧١١ تحت امرة ربانين متمرسين هما السيدان: دي لالاند ودي بيزلين.

لم يتمكن هذان المركبان ابدا من الوصول الى مضيق البحر الاحمر في شهر آب، في الوقت الذي كانت فيه الرياح ما تزال ملائمة للدخول اليه. شاهدا بوضوح جزيرة سقطرة، لكنهما لم يتمكنا من الاقتراب منها ولا من ساحل عدن، بسبب الرياح الموسمية التي تسود في الشمال الشرقي. ولتجنب اضاعة الوقت فقد اتخذ ربانا المركبين قرارا بالذهاب واللقاء في رأس جزر القمر، الذي تشكل معه جزيرة سيلان مضيقا يحمل الاسم نفسه، وهو من اكبر الممرات البحرية في اسيا.

كانا سعيدين في هذا السباق بسبب استيلائهما على مركبين انكليزيين يحملان الكثير من البضائع الثمينة ويتبعان مركبا هولنديا، أخذاهما قبل رأس الرجاء الصالح، ووصلا الى سواحل العربية بعد ذلك بشهر تقريبا.

مرا اولا على عدن ليأخذا منها ربابنة جديرين باصطحابهم بأمان في البحر الاحمر، لكنهما لم يتمكنا من ايجاد احد. يقال ان العرب يترددون ويتحذرون قبل الابحار على متن مراكبنا. في تلك الاثناء وصلوا لحسن الحظ الى المخاء، ورست مراكبهم فيها مع الاسرى في الثاني عشر من كانون الاول عام ١٧١١. وهناك وجدوا ان حاكم المخاء هو الذي كان سابقا حاكم عدن ابان الرحلة الاولى. وكان قد اخذ مكان اخيه الشيخ صالح، الذي كان وزير ملك اليمن، وبمعنى اخر رئيس وزراءه. وقد استقبل هذا الحاكم الجديد ربابنتنا استقبالا حافلا، واحاطهم ببعض الامتيازات الخاصة بشأن الحقوق.

ويمرض ملك اليمن بعد مرور وقت قصير، فيعظم وزيره من شأن مهارة الاطباء الفرنسيين وينصحه باستقدام احدهم من المركب الواصل الى المخاء. وبناء عليه يعطي الملك اوامره الى الشيخ صالح نفسه، ليرسل في الحال مبعوثين من قبله الى ربابنة سفننا، حاملين رسالة بالغة التهذيب تتضمن موضوع بعثتهم، وذلك للتأكيد على اهمية سفرهم. وقد ترأس هذه البعثة بأمر من الوزير سيدي عبده، امين سر الملك الاول، يرافقه ضابط يحمل سلاحا ذا قبضة فضية يتدلى من حزامه او من سرج حصانه، دلالة على نفوذه.

وبعد ان قرأت الرسالة وفسرت، حمل الربابنة على محمل الجدية كلمة "طبيب" التي تكررت اكثر من مرة في الرسالة. واجابوا كبحارة حقيقيين ان ليس لديهم ابدا أي طبيب على متن سفنهم، بل اناس مهرة في بتر الاذرع او الارجل، او في تضميد الجروح، والعناية ايضا بالمرضى وشفائهم في بعض الاحيان.

فرد المبعوثون بأن هذا النوع من الاطباء، هو ما يحتاجه الملك، فهو يعاني من خراج مزعج في الاذن، وسوف يتكل كثيرا على مهارتهم. وهكذا تداول الربابنة فيما بينهم واتفقوا ان يستفيدوا من هذه الظروف ليعرفوا اولا ملك اليمن بالوطن الفرنسي، وثانيا وليتعرفوا بافضل ما يمكن على هذا البلد الذي يقع تحت الحماية، علما بان ذلك سيعود بالكثير من الفوائد على التجارة.

وعلى هذا الاساس، ورغبة في ان يكونوا اهلا للشرف الذي منحهم اياه الملك، ارسلوا اليه بعثة حسب الاصول. وكلفوا بها السيد دولاغرلودبير، نقيب حامية بوندشري، اصله من ريف انجو، كان على وشك العودة الى فرنسا، وقد اتى من الهند الى المخاء مع البحارة الذين سلموه امرة "الهولندية". وقد تم اختياره كونه رجل قيادة، ويعرف لغات عدة، وبالتالي لا يغرر به مترجم برتغالي يترجم الى اللغة العربية.

وارسلت حاشية لترافق هذا المبعوث، ورافقه شخصيا السيد باربيه، الجراح الماهر، لكنه كان الرجل الثاني بعد السيد دي نوير الجراح الاول للجيش، والذي ارتأينا الاحتفاظ به لتلبية احتياجات المركبين.

واخيرا حمل الربابنة المبعوثين بعض الهدايا الى الملك، وكان اهمها مرآة رائعة يبلغ ارتفاعها خمسة او ستة اقدام، ومسدسين مشغولين بعناية فائقة، وبعض التحف من اجمل ما لدينا.

الانطلاق من المخاء الى بلاط ملك اليمن

وانطلق مبعوثانا ومبعوثا ملك اليمن من الشركة في المخاء، في الرابع عشر من شباط نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، على صهوة جياد اصيلة مسرجة بعناية. بلغ عدد المجموعة عشرين رجلا، وقد رافقهم حرس من فرقة الفرسان، ويتبعهم عدة جمال وبعض حيوانات النقل، لاننا حملنا معنا كل ما يلزم في هذه الرحلة.

موسى (موزع)

مشينا ما بقي من النهار وقسما كبيرا من الليل، وبعد ان قطعنا مسافة عشرة فراسخ، وصلنا الى "موسى (موزع)" هي مدينة صغيرة ريفية جميلة، وهي تنتج تقريبا كل الدواجن التي تنقل الى المخاء، كما وانها مستودع ومحطة على طريق كل الفاكهة القادمة من الجبال.

مانزري (المنظر)

امتطينا صهوة جيادنا في العاشرة صباحا وذهبنا لقضاء الليل في "مانزري" (المنظر)، حيث لا يوجد اكثر من خمسة او ستة بيوت، وقد نمنا تحت اشجار النخيل والحور، ومانزري (المنظر) هذه تقع على بعد خمسة عشر فرسخا.

تاج (تعز)

وانطلقنا في صباح اليوم التالي باكرا متجهين الى تاج (تعز). وصلنا اليها قاطعين مسافة ثمانية عشر فرسخا عبر طريق سهلي في اغلب الاوقات وممتع للغاية. هذه المدينة مشهورة في البلاد بسورها الرائع الذي بناه الاتراك، وفيها قصر جميل يشرف على الجبل الذي يبدأ من المدينة ويمتد حتى مسافة ستة فراسخ. وفيه مدافع كبيرة من الفولاذ، ويزج فيه عادة مساجين الدولة.

مررنا على الكثير من البساتين في منحدر الجبل هذا، مما يضفي مسحة جمالية على المنظر العام، ويعطي المدينة شيئا من سعة العيش والرفاهية.

حاكم مدينة تاج (تعز) هو ابن الملك السابق، سلف الذي يحكم اليوم. ولم يتوان مبعوثونا عن الذهاب الى القصر لالقاء التحية عليه، فاستقبلوا استقبالا حسنا واستذاقوا خصوصا ما يسمونه قهوة السلطانة. وقد استفسر منهم الحاكم كثيرا حول عظمة فرنسا ونفوذ ملكها، فأبدى اعجابه البالغ من اجاباتنا كلها. وبعد ذلك شاهدوا قسما من المدينة وهي تحوي تسعة او عشرة مساجد.

مانزول (المنزل)

تابعنا طريقنا من (تعز) حتى وصلنا الى مانزول. وعلى مسافة ستة فراسخ من (تعز)، استمتع رجالنا برؤية اشجار القهوة للمرة الاولى. وكانت هذه المنطقة بالنسبة لهم هي الاكثر بهاء والافضل زراعة في اليمن كله. كما

ورأوا الكثير من الاشجار المثمرة. وفي مانزول لا يوجد الا قصران قديمان جدا، كان احدهما مقر اقامة للملوك في اوقات الحرب مع الاتراك.

جبلة

عزمنا في مانزول (المنزل) على الوصول خلال يومين الى ايرام (يريم)، وهي مدينة تبعد من هنا مسافة ثلاثين فرسخا، مرورا بجبلة وهي مدينة صغيرة مسورة من جهة واحدة، مآذن مساجدها غاية في الجمال، ويحكمها احد ابناء الملك الذي ذهب مرسلونا لتحيته. انه امير بهي الطلعة حسن الوجه.

ايرام (يريم)

قضينا الليل تحت الاشجار في طريقنا، ووصلنا في اليوم التالي الى ايرام (يريم)، وهي مدينة كبيرة غير مسورة، وعلى رأسها يوجد ايضا حاكم. وعند مغادرتنا ايرام (يريم) شاهدنا جبالا شاهقة تكاد تكون الاكثر ارتفاعا في اليمن كلها. البلد التي بدت لنا حتى الان مستحبة ولطيفة، رغم ان الجبال تعترضه في اغلب الاحيان، بدأت تصبح جرداء ويابسة، ولم نعد نرى اشجارا واودية غنية بنبات القهوة، كما في الطريق السابق، حيث كانت المياه التي تروي الاراضي تنبع من جبال اقل ارتفاعا، وتشكل الكثير من السواقي دون ان تؤلف نهرا.

ومن ايرام (يريم) وصلنا الى دامار (ذمار)، وهي مدينة هامة تبعد عن المخاء خمسة عشر فرسخا عبر دروب وعرة وشاقة مرورا بجبال

شاهقة الارتفاع، حيث يلفحك في النهار حر شديد والريح ساكنة بلا اي نسيم عليل الا بعد مغيب الشمس.

لكننا عندما وصلنا الى دامار (ذمار)، لم يكن التعب قد نال منا تماما، وبالرغم من هذا يمكننا القول اننا بدأنا نتنفس الصعداء، فالبلاد تفتح ذراعيها وتمتد امامنا سهولا في غاية الجمال.

مواب (المواهب) مكان اقامة ملك اليمن

ونجد مدينة "مواب (المواهب) " على مسافة ربع فرسخ من دامار (ذمار)، وهي مقر اقامة ملك اليمن الاعتيادي. تقع مواب (المواهب) على المنحدر الجنوبي لجبل صغير. وقد بناها الملك الحالي. وبنى ايضا على جبل اكثر ارتفاعا يبعد ربع فرسخ قصرا لا يزال يحمل اسم مواب (المواهب) بعثات مؤرخة من هذا القصر وقد حمل بالعربية اسم قلعة (المواهب)، وهو بمثابة بيت للترفيه، يأتي اليه الملك عادة للراحة. وقد لاحظنا ان دامار (ذمار) ومواب (المواهب) القصر يشكلن مثلثا تفصل بينهم نفس المسافة.

وقد بنى الملك ايضا على بعد فرسخين ونصف، وفوق جبل صغير، قلعة وضع لحمايتها افضل جنوده، وجهزها بالعديد من قطع المدفعية، واليها يلتجئ اثناء معاركه مع الامراء المجاورين، او عندما يخشى اقتراب الاعداء، او اذا شعر انه ليس الاشد والاقوى في ساحة المعركة.

انفصل المبعوثون العرب الذين واكبوا حتى الآن مبعوثينا قرب مواب (المواهب) وراحوا يتقدموننا راجين منا ان نتوقف قليلا ليتسع لهم الوقت ويعلموا الملك عن وصولنا.

ولم يتوان الامير عن ارسال الفرنسيين اولا، واستقبلهم استقبالا حافلا، اما رجالنا فقد نفذ صبرهم في انتظار ذلك الاحتفال، بسبب الطقس الحار جدا. ساروا بعد ذلك بقليل، ولم يحل ذلك دون ايجاد الكثير من الناس خارج مواب (المواهب) جاؤوا لرؤيتهم. وهذا ما حدث معهم على وجه التقريب اينما قادتهم خطاهم.

هكذا وبعد ان سار مرسلونا ليل نهار، يبدلون الجياد غالبا، وصلوا اخيرا الى مواب (المواهب) في اليوم الثامن بعد مغادرتهم المخاء. وقد قطعوا مسافة تزيد عن اربعة وعشرين فرسخا عبر دروب وعرة وجبلية في اغلب الاحيان. وتعلقت في ذاكرتهم صورة الطريق الذاهبة من المخاء والمتجهة في معظم الاحيان نحو الشمال الشرقي.

نزلوا في بهو القصر بعد ان اجتازوا خمس بوابات مختلفة يحرسها حرس شخصي. وقد استقبلهم ضابط في مخدع الملك، ثم اصطحبهم عبر درج جميل داخل هذا القصر الذي بني على جناحين يرتفع كل منهما ثلاثة طوابق.

وطلب منهم الانتظار بعض الوقت على باب مخدع الملك، فتحدث معهم الضابط اثناءها بمساعدة ترجمان، وطال انتظارهم بعض الشيء، واخيرا اتى اليهم من يعلمهم ان بامكانهم الدخول، وهذا ما قاموا به بعد ان خلعوا نعالهم عند الباب. التقوا اولا وزير الملك، الشيخ صالح الذي اثنى عليهم، مضيفا انه صديق وفيّ للفرنسيين وانه سيقدمهم في مخدع الامير.

اما الملك فهو رجل هرم يبلغ عمره سبعة وثمانين عاما، بهي الطلعة وسيم المحيا لوحت بشرته عن سمرة خفيفة، يجلس على سريره، او بالاحرى فوق منصة يفترشها السجاد، تتصدر المخدع وتقابل الباب. يتكئ على وسائد وارائك، وبقربه ولداه الاميران، وعلى مقربة منه اعوانه من الضباط. ثم وعند اقدام المنصة قسم من رجال البلاط يجلسون على جانبي الصالة فيتشكل بينهما ممر عريض يعبره من يأتي لمقابلة الملك.

اما رئيس بعثتنا فكان اول من قدم نفسه، معربا عن تقديره واحترامه البالغ للملك. وكان يود المباشرة بالقاء خطاب صغير قد اعده مسبقا، الا ان الملك الذي يستعجله الالم، قاطعه ليسأله عن الطبيب من بين الفرنسيين، وعندما دل عليه، نهض الملك حالا يعاونه اثنان من ضباطه للنزول من المنصة، ليصحباه قرب نافذة كبيرة. وهناك نزع الملك عمامته، وأظهر للجراح موضع الالم الذي تحدثنا عنه.

وسرعان ما عرف الطبيب نوع الالم، والخراج الذي تشكل في الاذن، وتجاهل كل من تدخل لتضميده واكتفوا بذلك. وقد سرت اشاعة تقول انهم استعملوا لمعالجته نوعا من الطين الاصفر، معتقدين ان بإمكانهم شفاء الالم بتجفيف المنطقة المصابة. ولم يكن الامر على هذا النحو. بل بالعكس فقد سبب هذا الدواء التهاب الخراج، وآلاما مبرحة متواصلة للملك وحمى منعته من النوم.

طمأن الطبيب الملك واكد له انه سيشفيه. وللتخفيف من اوجاعه، استعمل في الحال زيت الورد لترطيب المكان المصاب وازالة ذلك الطين الاصفر. واكتفى اخيرا باستعمال لصقة مناسبة لامتصاص قيح الدمل.

بعدها اراه الملك ورما في يده، فقال له الجراح الفرنسي انه له نفس طبيعة دمل الاذن، وكان قد عولج ايضا بلا حذر. فقام الطبيب بعلاجه على نحو مماثل لعلاج الاذن، راجيا ان يتماثل الملك للشفاء العاجل من اوجاعه كلها.

وبعد ان عاد الملك الى منصته، ابدى لمبعوثينا امتنانه وشكره وسألهم عن رحلتهم الى العربية، وتلقى بكل سرور الهدايا التي حملناها اليه من قباطنة سفننا.

ولفتت انتباهه بشكل خاص المرآة، ممعنا النظر فيها مرات عديدة، وقلده في ذلك كل كبار القصر. وهكذا انتهت مقابلة الملك الاولى.

بعد ذلك لم يبرح الفرنسيون القصر فقد اراد الملك ان يقيموا فيه، وان تلبى كل احتياجاتهم. فوضع في خدمتهم ثلاثة اجنحة، احدها كان المطبخ. خلت تلك الاجنحة من الاثاث تماما الا من سجاد على الارض، ووسائد على المنصات والارائك كلها تستخدم كموائد واسرة ومقاعد. انها طريقة عيش كل الشرقيين تقريبا.

وبما ان هدف البعثة الاساسي بالنسبة للملك كان شفاءه، قام السيد باربيه بخدمة هذا الملك بمثابرة وانتظام. فأعطاه ملينا ومسهلا والكثير من المنعشات، دون ان ينسى الادوية الخارجية، مما جعل الوجع ينحسر شيئا فشيئا، فعاد اليه النوم واستعاد شهيته، وسر الجميع بذلك.

واستفاد السيد دولاغرلودييز من الظروف المؤاتية، فتكررت مقابلاته للملك، الذي لم ينس خلالها ان يرضي كل ما يثير فضوله حول فرنسا ونفوذ الملك وعظمة بلاطه الملكي وكل قصوره وخصوصا حول خصال واخلاق ملك فرنسا العظيم.

وراقت الاجابات جميعها لملك اليمن، الذي لم يتوقف عن ابداء اعجابه بكل ما سمع، وعن اظهار بالغ سروره ورضاه بشتى السبل.

اهتمام الملك بحسن ضيافة الفرنسيين في القصر لا يمكن التعبير عنه، كان يرسل لهم في الكثير من الاحيان طعاما من مائدته الخاصة، كما واصدر اوامر خاصة بما يتعلق بالاخرين.

لكن رجالنا لم يلائمهم الطعام المقدم ولا التوابل وخاصة القرفة المستعملة استعمالا مفرطا. كان الطعام يتألف عادة من لحم الماعز او العجل او الضأن، مقطع الى قطع صغيرة الحجم، ومطبوخة مع الارز بالإضافة الى القليل من الزبيب. اما لحم البقر فكان يحضر بنفس الطريقة الغريبة التي تحضر وفقها اللحوم الاخرى. كما كانت تحضر في احيان اخرى الدواجن التي يسلخها العرب فورا بعد ذبحها، ثم تقلى في الحال. ويعدون اللحوم الاخرى بهذه الطريقة ذاتها، ودون ان يدعوا اللحم يطرى ويلين. في حين انهم لايتناولون ابدا لحم الطرائد. خبزهم لاطعم له ولانكهة ، يصنع تقريبا كما الطلم من الحنطة السوداء، تشبه خبز البروتاني والنورماندي ولا يشربون الخمر ابدا، بالرغم من وجود الكروم قرب مواب (المواهب)، ولا يقدمون لك من مشروب الا الماء والقهوة.

وكما قلت سابقا، فإن رجالنا الذين لم تلائمهم طريقة العيش هذه، فطلبوا تزويدهم باللحوم الضرورية، ليعدوا طعامهم كما يرغبون، فلبيت رغبتهم بكل سرور وبدقة مدهشة.

طالت اقامتهم في مواب (المواهب) مدة ثلاثة اسابيع كاملة، وهذا ما يلزم من الوقت حتى يتماثل الملك للشفاء. كانوا يتركون القصر غالبا لزيارة المدينة وضواحيها، هذه المدينة التي لاتستمد اهميتها الا كونها محل

اقامة الملك. فهي صغيرة، اسوارها طينية كالكثير من بيوتها. في ضاحية كاملة من ضواحيها تسكن جماعة من اليهود، مجبرين على مغادرة المدينة في مساء كل يوم، ولا يتمتعون بحرية المبيت فيها. اما الطقس فهو رائع في مواب (المواهب)، بعض البرودة في الفجر قبل شروق الشمس، وبعد غيابها، اما من التاسعة صباحا وحتى الرابعة من بعد الظهر، فالطقس حار جدا.

غالبا ما رافق اعوان الملك من الضباط رجالنا في نزهاتهم على سهوات الجياد في نواحي المدينة، حيث بدت لهم الاراضي خصبة جدا. فقد بذرت السهول كلها بالارز والحنطة، وزرعت كل الهضاب والوديان بغراس القهوة الرائعة، دون الحديث عن العديد من الكروم والاشجار المثمرة.

وفي لقاء خاص مع الملك، باهى واشاد لمبعوثينا ببستان جديد قرب مواب (المواهب)، تم غرسه حسب زعمه بنوع ممتاز من غراس القهوة اسمه قهوة الملك.

وسرعان ما ذهب رجالنا لرؤية ذلك البستان، فلم يجدوا فيه تميزا يثير الاهتمام، الا تلك العناية التي يوليها الملك في زراعة غراس مألوفة وشائعة في مملكته، ضمن بستان مغلق وملكية خاصة.

وبعد ان هنأ السيد دي لاغريلودبير الملك ببستانه الجديد، سمح لنفسه ليفصح للملك عن رأيه بما يخص البستان، مقارنة بكيفية تصرف اكبر ملوك اوروبا ازاء حدائقهم الخاصة. فانهم لا يزرعونها الا باشجار الزينة، واضاف انه من الممكن لاعطائها لمسة من الطراوة والنضارة، ان نجد فيها بعض الثمار يتركها الملوك بكرم وطيب خاطر لحاشية القصر.

قبل ملك اليمن الامر قبولا ايجابيا، واجاب انه لا يقل عن ملوك اوروبا كرما وذوقا رفيعا. وفي الحقيقة نبتة القهوة شائعة في بلاده، وانما ذلك لا يخفض من سعرها او يجعلها اقل جودة، بل بسبب خضرتها الدائمة وثمارها المتميزة، التي يمكن ان تكون الوحيدة من نوعها في الطبيعة، انها متعة حقيقية له أي للملك، ان يرى غراس تلك النبتة تنمو امام عينيه، فقد غرسها بيمينه، ليهب منها بكل سخاء وكرم، وبكلمة موجزة، فإنه لم يكن على اطلاع بما يخص نباتات او فاكهة اخرى الا القهوة.

اعتذرنا عن القيام بوصف خاص لقصر هذا الامير اثناء اقامتنا فيه. ولكن رجالنا تمتعوا بكل وسعهم لدى مشاهدتهم القصر وزيارته ، اما الغريب في الامر فهو عدم قول الحقيقة بدقة في كل مكان، بل تنميق روايتهم بإشادات وهمية وتعظيم خيالي. وقد صرحوا انه وبالرغم من اتساع القصر ووسائل الراحة فيه بالقياس الى البلد، فإنه بسيط للغاية، هندسته بلا زخارف، كحال اثاثه المتواضع وكل انواع الزينة الداخلية. ويمكننا التحقق من هذا الامر بالنظر الى مخدع الملك الذي لا يرى فيه الا المنصة التي سبق وتحدثت عنها. وقد استعملوا لتزيينه قماشا مطبوعا من النوع البسيط يحيط بالمخدع كله وعلى ارتفاع خمسة او ستة اقدام فقط. ولا تبدأ من كل جهة الا من نهاية المنصة، المستخدمة كسرير والتي تعتبر مزينة زينة كافية بالسجاد والوسائد البسيطة دون مبالغة في تنميقها وزخرفتها.

اما شخص الملك نفسه فانه يمتاز هو ايضا بالبساطة، فإننا نكاد لا نراه يرتدي من ملابس الا ذلك الوشاح الرقيق الاخضر او الاصفر اللون دون أي زخرفة تذكر. عاري القدمين والساقين وينتعل حذاء كالاتراك. الا انه يتميز بغلالة من الحرير الابيض يلبسها فوق العمامة، تغطي رأسه

يتكامل وتنزل على جبينه ويعقدها تحت ذقنه، على نحو يماثل تقريبا
لنساء عندنا اللواتي يلبسن القبعة ذات الشرائط الحريرية.

ولا ادري ان كان يوجد وراء تلك البساطة المتناهية التي لاحظتها في
لقصر، وحتى في شخصية ذات نفوذ كشخصية الملك، شيء من التصنع
والتكلف، او عامل ما ذو طابع ديني اسلامي. وفضلا عن ذلك لاحظت ان
لهذا الملك دور الامام ايضا، مثل الكاهن او الحبر حسب الشريعة المحمدية.
ومن المحتمل الا يتلائم الزهو والابهة مع هذا المنصب الرفيع. وحسب ما
يرى في الدين المحمدي عامة، فإن المفتي والفقهاء والائمة العاديين وحتى
لقضاة ووزراء العدل، يتكلفون التواضع في لباسهم وفي كل ما يخصهم.

واما في ما يتعلق بحياة ملك اليمن الخاصة، فإنها حياة رتيبة بعض
لشيء. ينهض هذا الامير منذ طلوع الشمس ويتناول طعامه في الساعة
لتاسعة ثم يعود الى النوم حتى الحادية عشر صباحا. وفي تمام الساعة
لثانية من بعد الظهر، تدق الطبول، وينفخ في المزامير، ويحظى من يدعى
برئيس الطبالين وحده بامكانية الدخول الى مخدع الامير سواء أكان نائما
م مستيقظا. انه تركي الهوية ذو مظهر طريف ومضحك، يلبس حزاما
غريبا مملوءا بصفائح كبيرة وله كلابات فضية وقد طرزت سعفة نخيل في
مقدمة عمامته. هذا دون الحديث عن السلسلة الفضية التي يلوح بها مرات
كثيرة بطريقة ظريفة. ومنذ استيقاظ الملك الذي يعلن عنه هذا الضابط،
يزوره الامراء والاعيان ويتحدثون معه حتى يحين وقت الصلاة او
الاعمال. وعدا عن هؤلاء فلا يقترب منه احد دون ان يأخذ يده اليمنى التي
يضعها على ركبته، فيقبلها بكل الاحترام والتبجيل. هناك ايضا اوقات
مخصصة للنزهات ولزيارة النساء.

وينهي هذا الامير نهاره اخيرا، فيأوي الى فراشه كل يوم في الساعة الحادية عشر مساء، بعد ان يتناول طعام العشاء في الساعة الخامسة من بعد الظهر.

وبالتأكيد ان كان هناك شيء جدير بان يبين طابع البساطة الذي لاحظناها، ويبرز في الوقت نفسه العظمة الملوكية في شخصه، فهو بلا شك المسير الذي يقوم به هذا الملك، عندما يخرج من مواب (المواهب)، ليذهب كل يوم جمعة في الساعة الثانية من بعد الظهر، الى المكان المخصص لصلاة العامة. فالكل يعلم ان يوم الجمعة عند المسلمين هو يوم عبادة، ويوم اجتماعهم معا، وهو يماثل السبت عند اليهود والاحد عند المسيحيين.

يفتتح ذلك المسير ألف من الجنود المشاة يسيرون بانتظام بالغ، وذلك بعد طلق ناري عند باب القصر، وفي طليعتهم صفان من الجنود يرفعون رايات مسننة الاطراف، قد منحت اسم رايات محمد وعلي. يلي هؤلاء الجنود فورا مائتا فارس من حرس الملك، يمتطون صهوات جياد رائعة، ومسرجة بعناية فائقة. وعدا عن اسلحة الفرسان العادية، أي السيف والغدارة، فإنهم يحملون انصاف رماح زين حديدها بالشرابات، ويلي الفرسان ضباط بيت الملك وجلساؤه وهم بابهى حللهم. ثم وعلى مسافة معينة نرى الملك يمتطي صهوة جواد ابيض رائع الجمال والهدوء ولم يستخدم من البدء الا لركوب الملك. على جانبيه ابناء الاميران، فوق جياد اصيلة ومزينة تزيينا فخما. ضابط يركب بكل فخر ويحمل للملك مظلة كبيرة وبالاحرى نوعا من القبة يمشي الملك تحتها لتحميه من الشمس. وقماش هذه القبة من الدامسكو الاخضر مزين كيفما اتفق بنسيج احمر،

حو ثمانية اصابع على كل من اطرافها، وقد زيد اليها اهداب فضية،
وفوق القبة كرة فضية مذهبة، يعلوها هرم مذهب ايضا.

ومباشرة امام الملك، احد الضباط على ظهر حصانه، يحمل القرآن
ضمن كيس من القماش الاحمر، والى جانبه ضابط اخر يحمل راية من
الدامسكو الاخضر مربعة الشكل، وتدعى راية الملك. ولا يوجد عليها أي
رسم كغيرها من الرايات، ما عدا بعض الاحرف العربية المطرزة،
وتزدان هذه الراية بالاهداب الذهبية التي تملأ اطرافها.

ويختم الموكب خلف الملك ضابط اخر على حصان يحمل سيفه، أي
سيف الملك وقد زينت قبضته وغمده بكثير من الزخارف ، وغطى الغمد
بغمد اخر من قماش قرمزي اللون.

وعلى طول المسير، لم تكف الطبول عن القرع ولا الصنوج عن
الرنين ولا المزامير عن الصفير.

كل هذا الحشد ليس الا للذهاب الى السهل المجاور، أي حوالي ربع
فرسخ من مواب (المواهب)، حيث تنصب خيمة لاستقبال الملك، والتي
اعدت ايضا لتكون منبرا او مسجدا له.

واثناء مسير هذا الامير يعرض في طريقه خمسون من اجمل
الجياد، تقاد بالايدي، وقد طرزت اسرجتها تطريزا كثيفا، وطليت لجاماتها
بالذهب والفضة، وتحمل كل منها فوق السروج سيفا رائعا من جهة وفأسا
حربية من الجهة الاخرى، وقد استقدمت هذه الجياد من دامار (ذمار)،
حيث يوجد اسطبل الخيول الرئيسي التابع للملك. كما ويلي تلك الخيول
عدد مماثل من الابل، مجهزة على اكمل وجه كما الجياد، ولكل من رحالها
كرة فضية، وعلى رؤوسها باقة ضخمة من ريش النعام الاسود. وكل ذلك

ليس الا للاستعراض ولتزيين الاحتفال. فالخيول والابل لا تستخدم لأغراض اخرى بعد مرورها امام الملك ودورانها عدة مرات حول الخيمة او المضافة التي سبق وتحدثت عنها.

يدخل الملك وحده الى الخيمة، ويبقى فيها ساعة كاملة يعطي خلالها الاوامر لوزيره الاول، اما بصفته امام، فانه يتعين عليه البدء بالصلاة بالناس، ثم الخطبة بعدها، وهي كالموعظة في قداس الاحد. فبعد تسبيح الله وحمده يصلون على محمد، ثم يدعون من اجل الملك الحاكم. اما الامراء وكل من يرافق الملك فانهم يقيمون الصلاة كما يفعل الملك امامهم وكأنهم يقلدونه كما يجب في مثل هذا الاحتفال، لأن الخيمة مفتوحة كثيرا وجميع المصلين تقريبا يستطيعون رؤية الامام.

وبعد الصلاة، يمتطي الملك صهوة جواده، مع قرع الطبول ورنين الصنوج ونفخ المزامير، ويبدأ مسيرة العودة، بنفس الطريقة التي اتى بها، يطلق الجنود النار في الهواء عند الخروج من الخيمة، وتتعالى هتافات وامنيات الجمهور.

وعند وصوله الى مواب (المواهب)، يدخل قسم من الخيالة الى باحة القصر، ويبقى القسم الآخر خارجا. وعند دخول الملك الى القصر تجري بعض السباقات وتمارين مختلفة للخيول، وينطلق فرسان بسرعة فائقة بعكس فرسان اخرين، وينفذون هجمات متبادلة، مقدمين للناس صورة عن الحرب. في مثل هذا اليوم كل من يتواجد على الدرب لرؤية مرور الملك، يحظى بالاقتراب منه وتقبيل يده، فهو لا يمنع احدا من ذلك.

الا انه يبقى من الصعب بالنسبة لنا ان نتفهم كيف بنى هذا الامير مدينة جديدة مع قصر له، لتكون مقر اقامته المعتادة، دون الحديث عن

القصر الذي لم يكن يبعد كثيرا عنها وبالاخص دون ان يبني مسجدا واحدا فيها، مما يجبره على الذهاب الى الريف لاداء الصلاة، بتلك الطريقة التي تحدثنا عنها.

لم يكشف مبعوثونا سر الامر الذي لا يستند الا على حذر الامير العربي، الذي لم يكتف بتأمين نفسه وحمايته الشخصية خلف سلسلة من الجبال، فهو لا يجرأ ايضا على الصلاة في مكان مغلق خوفا من ان يباغته اعداؤه، او أن يخونه رجاله. وذلك لا بد يشير الى مثال حدث قديما، مثال علي المشهور والمعروف وهو صهر محمد الذي اغتيل في المسجد يوم اتى الى الصلاة العامة للمسلمين.

في الحقيقة يفيدنا التاريخ ان المملكة ليست وراثية، وان الامير الذي يكون حوله اكبر عدد ممكن من الموالين، ويكون هو الاقوى والاكثر دهاء، فانه يتسلم الولاية بشكل طبيعي ويتفوق على منافسيه الذين يقضي عليهم او يسجنهم في بعض الاحيان. لكننا نستخلص من ذلك انه وبالرغم من ان المملكة كانت لوقت طويل بيد نفس الاسرة الحاكمة، فإنها لم تتبع بشكل منتظم التسلسل الطبيعي للفروع التي تؤلفها.

فنجد مثلا ان الابن البكر استبعد احيانا عن سدة الحكم، عندما يكون الابن الاصغر او الامير الابعد اكثر قوة وله من الاساليب والدهاء ما يوصله الى الحكم. وهكذا خلف الامير الحاكم اخاه الامير بدلا من الابن الذي كما رأينا سابقا لم يكن الا حاكم مدينة تاج (تعز).

وفي هذه الفترة يتخذ ملك اليمن قبل وفاته الاجراءات الضرورية ليضمن التاج لابنه البكر فيعامله الناس مسبقا على انه وريث العرش.

وعلى ما يبدو فان الملك يحصن نفسه في اعلى الجبال ويتخذ الاحتياطات اللازمة كما سبق ولاحظنا.

ولو كان لدى مبعوثينا حب الاستطلاع والفضول وشيء من اتقان لغة البلاد، لوجدوا هنا شيئا مما يوفر الامان في عائلة ملك اليمن، لأن العائلات الكبرى في الاسلام معروفة، نجد سلالاتها وتاريخها. ويعتبر بعضها صحيحا.

ظننا في بادئ الامر ان هذا الامير منحدر من عائلة الطباطبة الشهيرة، التي حكم افراد منها في الجزيرة العربية حتى عهد شارلمان. وقد شكلت هذه العائلة سلالة امراء حاكمة تنحدر من علي. ومن المؤكد ان هؤلاء الامراء حكموا في اليمن، وفي مصر ابتداء من القرن العاشر. كنت اظن من المرجح ان الملك الذي تحدثنا عنه، يستمد اسمه من الأيوبيين نسبة الى أيوب او (Job)، سيد عائلة كبيرة اخرى، كان صلاح الدين الشهير واحدا من ابنائها. ومن ذريته فرع من هؤلاء الأيوبيين حكم فعليا في البلد هذا نفسه اليمن في القرن الثالث عشر، واتخذ من تولى الحكم لقب الخليفة والامام، وهاتان صفتان متلازمتان لا تنفصلان عنه. وما زالت هذه حال ملك اليمن حتى اليوم كما رأينا سابقا.

هناك ظاهرة اخرى من ظواهر العظمة والابهة الملكية عند هذا الامير، وهي ظاهرة مشتركة لدى كل امراء الشرق، الا وهي عدد السراري الكبير في البلاط، اللواتي ينفق عليهن الملك، ويقدر عددهن بين ست او سبع مائة. وتقع سرايا تلك النسوة داخل قصر مواب (المواهب). وقد اتين من جنسيات مختلفة. منهن حسناوات رائعات الجمال من جورجيا، ونساء عربيات ايضا ذوات بشرة بيضاء للغاية، يعشن في تنقل

مستمر بين القصرين. ثلاثين امرأة على الاقل يسكنّ في شقق خاصة، وسيلتهن في التنقل هي الجمل، وقد وضع على ظهره ما يشبه سريرا مغطى بالقماش الاحمر (هودج) وفيه الكثير من الوسائد، وعلى هذا السرير تجلس او تتمدد هؤلاء النسوة. ويخرجن منه عبر فتحة امامية صغيرة، ويلبسن خمارا يغطي الوجه من نسيج ملون فاتح اللون ورقيق جدا.

معظم نساء هذا البلد يتزين بحلقة ذهبية ثقبت طرف الانف، ويلبسن عدا ذلك الحلي على الساعد او المعصم، وفوق كاحل القدم الاساور الفضية، اما الميسورات منهن فتضع الحلي الذهبية. وتفوح منهن دوما العطور النفاذة. اما عن الكحل الذي يسودن به الجفون، والعشبة التي يفركن بها الايدي والاقدام مما يصبغها ويصبغ الاظافر ايضا بلون احمر فاقع، فحدث ولا حرج. تلك عادات الجزيرة العربية وكل بلاد المشرق ونمط الجمال عندهم.

وقد لاحظ رجالنا في مواب (المواهب) كما في المخاء، ان النساء يتبادلن الزيارات في المساء. وان غيرة الرجال عليهن جعلت منهن نساء اكثر توحشا من أي مكان اخر، حتى انهن لا يجرؤن على الخروج الى الشرفات لاستنشاق نسيم رطب.

وقد حظي السيد باربيه وحده من بين الفرنسيين بالاقتراب من نساء مواب (المواهب)، ويعود الفضل في ذلك الى مهنته. فبسبب التهاب مفاصل تعاني منه احدى نساء الوزير الاول، وزوجة ضابط من ضباط الملك، طلب من الطبيب الفرنسي ان يأتي لعلاجهن. وقد طال الالم بشكل خاص الساعد والساق، فوجبت زيارتهن. وقد وجد ان بشرتهن بيضاء للغاية، ووصف لهن علاجا، كان نافعا ومفيدا، واكد السيد باربيه انه

وبالرغم من الثقة التي منحه اياها الرجال والنساء، لم يتمكن ابدا من رؤية وجوههن.

وصل الى القصر سفير تركي، خلال اقامة مبعوثينا، قادما من اسطنبول مرورا بمصر، موفدا من الصدر الاعظم الى ملك اليمن، وتلك علامة اضافية تشير الى سيادته واستقلاله، ونعلم جيدا ان البلاط العثماني متحفظ جدا بما يخص السفارات.

وقد بدا هذا السفير على قدر كبير من الابهة ترافقه حاشية ضخمة، يقيم مع كل حاشيته في ضيافة الملك وعلى حسابه ونفقته. وقد اهدى السفير للملك هدايا مختلفة منها تلك الساعة القيمة والمشغولة بعناية كبيرة.

وبما يخص موضوع السفارة علم رجالنا انه كان ظاهريا سفيرا فخريا ومن اجل تدعيم اواصر الصداقة والعلاقات الودية بين الملكين المسلمين، اما في واقع الامر فقد كان الموضوع يتعلق بالتجارة، وخاصة تجارة القهوة، فقد شكوا أمام الملك من ندرة القهوة وارتفاع ثمنها في مصر وكل بقاع تركيا. اذ ان مجيء الاوروبيين على سواحل البحر الاحمر اليمنى ليملؤوا مراكبهم بالكثير منها، الحق ضررا بجمارك الصدر الاعظم ورجاله، وعليه فقد توجب على السفير ان يجري مداولات طويلة مع الملك، الذي حسبما قيل لم يكن مسرورا من تلك المداولات التي بدت وكأنها تنال بعض الشيء من سلطته الملكية. وهناك ما يدفع الى تصديق ذلك لانه لم يكن في الامر أي اعتبار او مراعاة، والتجار الفرنسيون ملأوا مراكبهم بالقهوة قدر استطاعتهم، وبنفس اسعار الحملة السابقة تقريبا. ولاحظنا ان الملك قرر اخيرا تسفير هذا الوزير التركي في اسرع وقت ممكن، ويعود ذلك الى نفقات الضيافة التي اثقلت كاهله بعض الشيء لان

الاستقبال كان على احسن ما يرام، او لانه كان حذرا بطبيعة الحال فازعجه حضور كل هؤلاء الاتراك واقامتهم.

تزامن هذا مع ثورة بعض المستائين والمتمردين، الذين حملوا السلاح من جهة جدة، ميناء مكة، والتي تبعد ستين فرسخا عن مواب (المواهب)، فارسل اليهم الملك جيشا يصل عدده الى ثلاثة الآف رجل من خيرة رجاله، فهزموا المتمردين وقتلوا عددا منهم، وحملوا الخبر الى الملك مع خمسة رؤوس عرضت في ساحات مواب (المواهب)، وتبعثر من بقي من رجال ذلك التمرد وانسحبوا الى الغابات،

واحتفل البلاط والمدينة بذلك واشعلت النيران في كل مكان وكان اعظمها في ساحة القصر الكبرى.

وعندما تماثل الملك للشفاء التام، طلب اليه الفرنسيون السماح لهم بمغادرة القصر، وقد شق عليه ذلك مشيرا الى رغبته بضيافتهم وقتا اطول، لكنه اعطاهم اخيرا موعدا لمقابلة الوداع، وقد لاحظ رجالنا في تلك الاثناء ان الملك ورغم انه مسن، كما قلنا سابقا، سيتزوج مرة اخرى من شابة تركية لها من العمر ثمانية عشر ربيعا فقط.

بعد حفل الزواج الذي لم يكن خارجا عن المألوف، جيئ بمبعوثينا الى المقابلة الاخيرة مع الملك الذي اطالها جدا وكانت ممتعة للغاية بحضور الامراء. امتلأت القاعة بالرجال اكثر من المعتاد، وبعد ان القى الملك عدة كلمات عبر فيها عن عميق تقديره وامتنانه لهم، وبعد ان عبر مبعوثونا عن جزيل شكرهم للمعاملة الطيبة وللهدايا التي انعم بها الملك عليهم، انتقل الحديث الى ما سمع الملك مسبقا عن فرنسا وعن ملكها الكبير الملقب بالامبرطور والذي يحكمها بكل تلك العظمة.

ومن جديد وجب الاسترسال في هذا الحديث، فتطرق الملك الى ذكر جيوشه في البر والبحر وميزانيته والاسطول والتجارة، والقصر وحالة العائلة، وضباطه الكبار واشاد بعظمة قصوره الملكية وجمالها، وتلك القلعة الرائعة التي يسكنها هو بشكل طبيعي، على مسافة من المدينة الكبرى، التي لم ينس ان يصفها في حديثه وكأنها واحدة من روائع اوروبا، عدا عن تعداد القلاع وحدود المملكة. ولم يكف ذلك الملك العربي عن طرح الاسئلة واظهار الاعجاب، الى ما هنالك من هذه الافكار والاراء. وقد قال للمبعوثين انه سعيد جدا بتحالفه مع ملك قوي ومتمكن وباقامة بعض العلاقات التجارية معه. كما وعبر لهم عن رغبته عند عودة القباطنة الى اوروبا، ان كان ذلك ممكنا، في الحصول على موجز لتاريخ امبرطور فرنسا، وعرض لقصره الرئيسي. وطلب اخيرا ان كان بامكانهم ان يرسلوا له صورة عن الملك وعن امراء عائلته (لا يولي المسلمون هنا اهمية كبرى للصور الشخصية، اما في بلاد فارس وفي كل المذاهب العلوية الاخرى، فان التصوير لا يشكل أية مشكلة لديهم).

واخيرا سأل عما اذا كانت القهوة بعض الشيء محل تقدير الامبرطور. واضاف "ان القهوة هنا هي اثمن ما عندنا، وان العناية الالهية كانت الى جانبنا بوجود القهوة في بلادنا وحرمان سائر المناخات في العالم منها، وهذا ايضا كل ما بوسعي تقديمه للامبرطور، اذا ما رغب ربابنة سفننا حمل خمس مائة كيس من اجود الانواع في المملكة قاطبة، ليقدموها له من جهتي، فإنني سآمر بتحميلها على متن سفنهم بالذات".

وقد اجاب مبعوثونا على كل تساؤلات الملك بما يليق من اجابات. ووعدوه ان يذيعوا في فرنسا مشاعره النبيلة ازاء امبرطورنا، وتلبية كل ما

يرغب الحصول عليه مما يمس بمشاعره وباهتماماته ايضا. اما حول اقتراح الملك بشأن القهوة، فهم يعتذرون بالنيابة عن القباطنة عن امكانية قبول ذلك. فان حمولة المراكب كانت كبيرة جدا ولم يعد بالامكان ايجاد مكان لمثل هذه الارسالية. ولم يعتقدوا في حقيقة الامر ان القباطنة سيقررون بمبادرة خاصة منهم ودون الاتصال ببلاط ملكهم قبول هدية كمثل هذه الهدية. انهى الملك المقابلة بمزيد من الامنيات بالازدهار والتقدم وبالعودة سالمين الى فرنسا. واعرب مبعوثونا من جديد عن احترامهم العميق وعن خالص امتنانهم وعرفانهم لملك هو في غاية الانسانية والكرم والاحسان.

اما الهدايا التي ارسلها الملك عشية مقابلة الوداع فقد تضمنت لباسين من الزي البلدي، الاول من القماش القرمزي الناعم والاخر من نسيج رائع وردي اللون. وتضمنت الهدايا ايضا سترتين الاولى من قماش هندي مطرز بزهور ذهبية وفضية، والاخرى مصنوعة من نسيج صوفي متين ذي ثنيات، مليئ بالشرائط الذهبية.

كانت كل تلك الهدايا للسيد دي لاغريلودييز، ومثلها للسيد باربيه، وعدا عن ذلك قدم لكل منهما حصان رائع مسرج بمنتهى العناية. كما وارسل جيادا والبسة جميلة جدا للقباطنة.

وبعد ان استأذن رجالنا من الوزير الاول ومن كبار الضباط في القصر، غادروا اخيرا مواب (المواهب) في نهاية الصوم الاربعيني، يرافقهم ضابط مع موكب شبيه بالذي رافقهم عند قدومهم، يمهد امامهم الطريق نفسه الذي اتوا منه. ولكن وبما انهم لم يكونوا على عجل، لم يسيروا النهار كله في السفر، بل قضوا لياليهم كلها تقريبا في اماكن جيدة

نسبيا، وخاصة في بداية الرحلة حيث اماكن توفر كل وسائل الراحة الممكنة، حتى انهم وجدوا ايضا اصطبلات لإيواء خمس مائة حصان.

قلنا سابقا ان طريقا طويلا كهذا، كان يقطع غالبا عبر جبال شاهقة تتخللها بعض السهول، ولاحظ رجالنا ان بعض تلك الجبال كانت قاحلة جرداء حرقها وهج حرارة الشمس، وليس هناك اية غابات من اشجار ضخمة عالية، بل احراج ونباتات خصوصا على السواحل. وشاهدوا حجلا احمر اللون، حجمه اكبر من حجم الحجل عندنا، و طيور السمانى والترغل، باعداد كبيرة لا يصطادها العرب ابدا. وشاهدوا ثعالب لا تهاب ابدا وتسمح بالاقتراب منها كثيرا دون ان تخاف، وقردة لا تعد ولا تحصى وهي من اكبر الانواع، ولا تقل نفورا عن الثعالب.

وتركز اهتمام رحالتنا على مراقبة كل ما يتعلق بنبات القهوة في طريقهم، وفحصها عن كثب، وعلى اصطحاب عربان معهم، والحصول على كل التعليمات الضرورية للاطلاع على كل ما يتعلق بهذه الشجرة الا وهي القهوة. بدا لي كل هذا امرا مهما جدا، امرا نجهله تماما حتى الوقت الحاضر، واعتقد ان علي ان اجعل منه بحثا مستقلا اذيل به نهاية هذه الرسالة. فمن المفضل الا نقاطع خط سير الرحلة.

من جهة اخرى وعندما كان رجالنا في مواب (المواهب)، دأب السيد دي نوير وهو كبير جراحي الجيش ورجل ذكي ومهتم، دأب على دراسة الطبيعة والاطلاع بشكل فردي على كل ما يخص نبات القهوة في بيت الفقيه.

وانا من جهتي جمعت المعلومات التي سلمني اياها كل من رحالتنا بشكل فردي، لتشكيل مقال واحد حول الموضوع ذاته.

وعدا عن نبات القهوة فقد لاحظ رجالنا في الاحراج نفسها وجود العديد من الاشجار المثمرة كالدراق والمشمش واللوز والليمون والبرتقال والرمان والخوخ والتين ذو الثمار الحامضة، وشجر التفاح ايضا ولكن بكميات قليلة، والكثير من اشجار السفرجل التي تصنع من ثمارها مربى السفرجل اللذيذ، والتي نجدها في المدن الكبرى حيث تباع باسعار مرتفعة. كما شاهد رجالنا ايضا كروما في بعض المناطق، وقد اكدوا ان جودة العنب في بلاد العرب من جودة العنب في اسبانيا.

وصل في تلك الفترة مبعوثونا الى المخاء في السابع والعشرين من اذار، الذي صادف يومها عيد الفصح، وقد استقبلهم القباطنة بالطبع استقبالا حسنا، وقدموا لهم تقريرا حول المهمة. وقد اعترف القباطنة باهمية هذه الرحلة التي ادت لهم فوائد كثيرة. فقد اعطت مصداقية لدولتنا وجعلت الحكام يولون اهمية لكل ما من شأنه تشجيع تجارة القهوة وتسريع ارسال المراكب الفرنسية، دون الحديث عن الغاء ضريبة جديدة اراد ان ينالها حاكم بيت الفقيه لنفسه.

اما كل من سافر من مواب (المواهب) فقد اكد ان هناك فرقا شاسعا بين مواب (المواهب) والمخاء، لاننا وكما لاحظنا سابقا وعلى بعد خمسة عشر فرسخا من تلك المدينة أي من مواب (المواهب)، ان ما نجده فيها لايمكن ان نجده في أي مكان اخر من اليمن. فالارض حارقة جدباء، وعدا عن ذلك فهي مليئة بالازوت، ولا تنتج الا البلح الشائع جدا، على نحو انه لولا موقع ساحل المخاء الجيد الذي تصدر اليه من كل حدب وصوب مختلف المواد الغذائية، وخاصة القمح والارز، لكادت المجاعة تهدد المدينة وكل المناطق المحيطة.

وعلم رجالنا انه عدا عن المدن التي رأوها، هناك ايضا مدن مهمة في المملكة، اهمها مدينة صنعاء، التي تبعد خمسة عشر فرسخا عن موا (المواهب)، ومائة وخمسين فرسخا عن المخاء. ومن المؤسف أن الفضول او أي سبب اخر لم يحملهم على الذهاب لرؤية تلك المدينة التي لم يزرها بعد أي رحالة اوروبي. ومن المؤكد ان فيها اثارا قديمة رائعة، لأنها وقبل ظهور الدين الاسلامي كانت عاصمة العربية السعيدة قاطبة، وتحت حكم التبابعة، الملوك العظام الذين اتخذوا منها مركزا لبلاطهم.

كان قصر هؤلاء الملوك روعة في الجمال، مبني على تلة في وسط المدينة، اما فيما قبل الاسلام وبعده، فقد كان امبرطور اثيوبيا يميل الى المسيحيين الذين رزحوا تحت الجبروت العربي، اذ ان الاثيوبيين الذين غزوا اليمن السعيد، وبنوا في صنعاء، وعلى التلة ذاتها كنيسة ضخمة تنافس معبد مكة، وذلك لتحويل العرب عن عبادة الاوثان والخرافات التي كانوا يعتقدون بها، ولم يدم حكم الاثيوبيين طويلا. نقتطف هذه المعلومات عن الكتاب الشرقيين الذين مروا على ذكر الموضوع مرور الكرام، فهم يقولون ان صنعاء مدينة موغلة في القدم غنية ومأهولة، تجارة المال فيها اكبر من تجارة البضائع، اسوارها عريضة لدرجة تكفي لمرور ثمانية جياد معا، وقد اضاف ابو الفداء عالم الجغرافيا الشهير ان صنعاء تشبه دمشق الى حد بعيد، من حيث وفرة ينابيعها وجمال غيطانها. وبناء على هذه الفكرة، اليس بامكاننا ان نضع في هذه المنطقة ذلك النوع من الفردوس الارضي المسمى إرم وهو الذي بناه في اليمن منذ زمن بعيد ملك نعته القرآن الكريم بالجبروت، انه فردوس شهير في الاسلام، وكل دواوين

الشعر الاسلامي تقريبا تشير اليه. مهما يكن فإن حرارة المدينة ونواحيها حرارة معتدلة كما ويتساوى فيها طول الليل والنهار.

لاحظ رحالتنا ايضا وجود العديد من الطرقات الكبرى، بعضها مرصوف، ويبلغ طول كل طريق اكثر من مائة فرسخ، وتصل الى انحاء عديدة من المملكة الممتدة على مساحات كبيرة، مع انها لا تشمل الا جزءا من العربية السعيدة.

اما ما تبقى من البلاد والذي يحمل هذا الاسم والمقسم الى امارات اخرى، فهو ينتج الصمغ والصبر والتوابل التي لم يجدوا أي نبتة منها في سفرهم الى مواب (المواهب)، بل في بقاع اخرى من المملكة، يتوفر البخور بكثرة. ولم نأت على ذكر شجر البلسم، لانهم يجدونه خارج اليمن السعيد وفي ضواحي مكة.

بقيت مراكبنا راسية في ميناء المخاء مدة ثلاثة اشهر اضافية. وخلال تلك المدة شهد رجالنا تنفيذ حكم بالاعدام وفق الاعراف والتقاليد عند العرب، وهذا امر يستحق ان يروى هنا. قتل احد سكان المخاء رجلا في مبارزة، وحكم عليه الحاكم بالموت بلا اية اجراءات قانونية، فقيد المجرم الى احدى ابواب المدينة، وهناك قام اقرب اقرباء المقتول بفتح اسفل بطنه بسكين عادي، فوقع المجرم على ركبتيه، ورفع منفذ حكم الاعدام الرأس ليقطعه قطعا سريعا، ثم لجأ الى احد المنازل المجاورة بحماية خيالة حرس الحاكم، المرسلين للاشراف على تنفيذ الحكم. لان شعب المخاء شعب متمرد جدا، ولا يشاهد بطيب خاطر مثل هذا الاستعراض.

اصبح كل شيء جاهزا للرحيل، السفن الفرنسية رفعت الاشرعة في العاشر من تموز عام ١٧١٢. وقد اطلقت عدة طلقات نارية اثناء ابحارها،

ثم رست لبعض الوقت في ماسكاران او في جزيرة بوربون، وبما ان التيارات الهوائية دفعت بشكل طبيعي المراكب والسفن الشراعية القديمة، فان مركبا من الاسطول لم يصل الى سان مالو الا في الحادي عشر من حزيران عام ١٧١٣، بينما اجبر تيار بحري الاخر على الارساء في ساحل انكلترا، وبسبب نفاذ المؤنة ومرض الطاقم فيها لم يصل الى سان مالو الا في شهر تموز من العام التالي.

طلبت الوكالة وربابنة الجيش بعد ذلك بايام قليلة، من السيد دي لاغريلودبير الحضور الى القصر، ليعطي تقريرا عن رحلته الى بلاط ملك اليمن، فروى بالتفصيل كل ما جرى وانا استقيت منه خلال الاشهر الثلاثة التي اقامها في باريس، مادة هذه الرسالة.

كما وامدني السيدان دونوبير وباربيه بذكرياتهم الخاصة عن طريق السيد دولا ميرفيي الذي نقلها بنفسه الي وانا في باريس. وهذا مما يدعونا الى التأكد بشكل عقلاني عن حقيقة ومصداقية ما تتضمنه.

مذكرة حول شجرة القهوة وثمرتها

تستند الى ملاحظات سجلها الذين قاموا بالرحلة الاخيرة الى العربية السعيدة

وصف شجرة القهوة

يبلغ ارتفاع الشجرة التي تنتج القهوة من ستة الى اثني عشر قدماً واتساع دائرتها من عشر او اثنتي عشر وحتى خمسة عشر بوصة. فاذا بلغت طور النضوج يمكن تشبيهها بشكل شجرة تفاح عندنا عمرها ثمانية الى عشرة اعوام. تنحني اغصانها السفلى بشكل طبيعي عندما تعمر الشجرة بضع اعوام وتنتظم بنفس الوقت بشكل دائري فتصبح شبيهة بالمظلة. خشبها لين جدا حتى انه يمكن ثني اعلى اغصانها الى ارتفاع قدمين او ثلاثة عن مستوى الارض. لحاء شجرة القهوة يميل الى البياض وهو خشن بعض الشيء ، ورقتها تشبه جدا ورقة الليمونة ، الا انها ليست حادة ولا سميكة مثلها ولونها اكثر اخضرارا. شجرة القهوة هي دائما خضراء ولا تتجرد ابدا عن كل اوراقها بنفس الوقت. وهي منتظمة على جانبي الاغصان بمسافاة متوسطة المدى وتتقابل من الجانبين.

عدا ذلك لا شيء يتميز اكثر ثمرة من هذا النوع. وهو انك في كل فصول السنة تقريبا ترى الشجرة الواحدة تحمل الزهر والثمر معا. منه الفج ومنه الناضج او على وشك النضوج. زهرها ابيض ويشبه كثيرا زهر الياسمين ، ومثل الياسمينة لها خمس بتلاة قصيرة، رائحتها لذيذة، ولها ما

يجانس شذى البلسم رغم ان طعمها مر. تنشأ الزهرة عند تفرع الورقة عن الغصن.

وحين تقع الزهرة يبقى في محلها او بالاحرى يتكون من كل زهرة ثمرة صغيرة شديدة الاخضرار في البداية ثم تحمر مع النضوج. والثمرة تصبح كحبة كرز كبيرة يطيب اكلها وهي مغذية ومنعشة جدا. تحت لب تلك الكرزة تجد مكان النواة فولة او حبة نسميها قهوة يغلفها غشاء في غاية الرقة. عندها تكون الحبة غضة للغاية وطعمها غير مستساغ وبقدر ما تنضج الحبة تقسو شيئا فشيئا، وفي اخر مرحلة بعد ان تجفف بالشمس هذه الثمرة الحمراء يصبح اللب الذي كان يؤكل سابقا عنبية او فص لونه بني غامق يشكل الغلاف الاول او الخارجي للقهوة وتصبح اذ ذاك الحبة صلبة لونها اخضر فاتح. وهي تسبح في نوع من السائل السميك بني اللون شديد المرارة. والفص معلق بالشجرة بواسطة ذنيب قصير وهو اضخم قليلا من حبة الغار وكل فص لا يحتوي الا على حبة واحدة وهي تنقسم عادة الى شطرين.

وهذه الحبة كما قلنا يغلفها غشاء في غاية الرقة وكأنه يشكل غلافا ثانيا او غلافاً داخلياً. والعرب يولونها اهتماما بالغا لاعداد ما يسمونه قهوة السلطانة كما سيأتي الحديث فيما بعد.

ويؤكد رحالتنا ان اشجار القهوة تأتي من البذر وليس بالفسل كما زعم بعضهم وذلك بان يزرع الفص في الارض أي الثمرة بكاملها ناضجة تماما ثم ينمو النبت في مشتل وينقل بعدها اينما يشاء المزارع.

اما المناطق المناسبة لزراعة القهوة فهي سفوح الجبال والتلال المشجرة ذات الظلال والرطبة. واكبر اعباء تلك الزراعة هي تحويل مياه

الينابيع والسواقي من الجبال وتوصيلها في مجار صغيرة لري جذوع شجار القهوة التي هي بحاجة دائمة للري في بيئة رطبة لكي تثمر ثمرا جيدا وناضجا.

وكلما اعاد العرب زرع القهوة يحفرون حفرة باتساع ثلاثة اقدام وعمق خمسة يغمرونها بالحجارة لكي تتسرب المياه بسهولة الى الارض السفلية وايضا لكي تحافظ على الرطوبة المطلوبة، ولذا حين يرى المزارعون ان الشجرة تحمل ثمرا كثيرا وناضجا فانهم يحولون الماء عن جذعها لكي يتسنى للثمرة ان تجف وهي على الغصن والا فان ارتفاع نسبة الرطوبة قد يحول دون ذلك.

ولو أن رجالنا لم يقوموا برحلتهم الى مواب (المواهب) لكنا جهلنا الى زمن بعيد ظاهرة غريبة تتعلق بزراعة القهوة لم يذكرها احد قط قبلنا، وهي انه في السفوح المعرضة للجنوب او الكثيرة التشمس تزرع القهوة تحت ظلال اشجار اخرى عالية يقال انها من نوع الحور وتشكل حماية لها ترد عنها حرارة الشمس الحارة. ويظن انه لولا تلك الظلال التي تحافظ على بعض الرطوبة تحتها لسرعان ما تحترق زهرة القهوة ولما حملت ثمرة قط كما يلاحظ ذلك لدى بعض اشجار القهوة في المنطقة نفسها والتي لم يتوفر لها مثل ذلك الجوار الواقي. وبالفعل فان اغصان تلك الاشجار تمتد بشكل عجيب وتشكل بانتظامها دائرة كاملة تغطي كل ما يقع تحت ظلها.

وكما اشرنا سابقا فقد لاحظ الفرنسيون لاول مرة تلك الظاهرة على مسافة معينة من مدينة "تاج (تعز)" وفي تلك الدقة والتنظيم التي ذكرنا ذلك ان الاراضي في تلك المنطقة مكشوفة ومعرضة اكثر من سواها لحرارة الشمس الحارقة. وقد لاحظوا ايضا ان كل شجرة حور تغطي بظلالها عددا

محددا من اشجار القهوة ويتكرر ذلك على مساحة الحقل كله فتكون اشجار القهوة مرتبة ومنتظمة حسب خطوط تشبه الى حد ما تنظيم اشجار التفاح في منطقة نورماندي (في فرنسا). واخيرا فقد دفع الاهتمام باحد رحالتنا الذي كانت له الكفاءة اللازمة الى رسم شجرة القهوة في مكانها الطبيعي بكل الدقة التي توفرت لديه وذلك بعد ان اختار ما بدا له قابلا لاثارة الشعور بجمال طبيعة تلك المادة وحقيقتها. وقد اضفت هنا ذلك الرسم عينه لعله ينال اعجاب الناظر المهتم.

اما في المواقع الاقل حرا بالنسبة لتعرضها للشمس فلا تجد تلك الاشجار العالية لتوفير الظلال بل ان اشجار القهوة تكون فيها مكشوفة تنمو وتثمر بغزارة دون حاجة الى تلك الوقاية.

وقد شاهد السيد دونوابيه عددا من ذلك النوع في الرحلة التي قام بها خصوصا الى راديا او رازيا (الرزاعي) وهي مدينة جبلية صغيرة تقع على بعد اثني عشر ميلا من بيت الفقيه. وحسب ما قال له حاكم راديا نفسه فهي من افضل نواحي البلاد كلها اذ تجد فيها الى جانب اشجار القهوة التي تعتبر من اجمل ما يوجد، كثيرا من الاشجار الاخرى المثمرة. هناك ايضا نوع ممتاز من الحنطة وانواع اخرى من القمح كما وتجد الشمام والخيار بكثرة. في تلك المنطقة كما في مواب (المواهب) تزرع القهوة حسب ترتيب وضمن خطوط مرسومة وتبعد الشجرة عن سواها مسافة قليلة.

وتجب الاشارة هنا ان السيد دونوابيه تبين لي انه الاكثر ذكاء ودقة من بين رحالتنا. وقد استعنت بملاحظاته لاكتب وصف شجرة القهوة في مطلع هذه المذكرة: واذ انه بادر بقطف غصن مثمر بكامله وحمله الينا وقد سهر على الاحتفاظ بنضارته تسنى لنا ان ننشئ عنه رسمة. وعاجلا سوف

يلاحظ مراقب الغصن الذي تظهر اوراقه وثماره على طبيعتها ان الرسم يختلف عن كل ما رأينا حتى الان في ما قدمه العديد من الرحالة الذين سبقونا كرسوم لاغصان القهوة.

اما فيما يخص قطاف القهوة نظرا لأن الشجرة تحمل في الوقت نفسه ازهارا وثمارا منها غير ناضجة ومنها ناضجة كان من الضروري ان يتم على ثلاث مراحل مختلفة. وفي هذا الخصوص يمكن القول ان هناك ثلاثة مواسم في السنة خاصة بقطاف القهوة. الا ان تلك المواسم غير ثابتة ولا منتظمة وبالاصح يعتبر العرب ان عندهم فعلا موسما واحدا يقع في شهر مايو/ايار وهو اهم موسم في السنة.

فاذا ارادوا قطف القهوة مدوا قطعا من القماش تحت الاشجار التي يتم هزها فيتساقط الثمر الناضج بكل سهولة. ثم يوضع في اكياس لينقل الى موضع اخر حيث يتم نشره على ضفائر ليجف في الشمس مدة من الزمن. وذلك ليسهل بعدها فتح اللباب المحتوي على الفصوص بواسطة دقات كبيرة من الحجر او من الخشب ثقيلة الوزن يدق بها اللباب.

وعندما تخرج القهوة بعد هذه العملية من لحائها وتنقسم الى فصين صغيرين او بالاحرى الى نصفين كانا قبلها يشكلان قطعة واحدة توضع لتجف في الشمس ما تزال حينذاك خضراء. فان القهوة الطازجة او التي لم تجف بعد معرضة لان تفسد ابان النقل البحري. ثم يتم نسفها في مناسف كبيرة لتنقيتها وليكون صنفها افضل. اما الذين لا يهتمون بانتاج قهوة نقية ومجففة كما يجب فيبيعونها باسعار منخفضة.

وآن لنا ان نقول كلمة حول تحضير مشروب القهوة عند العرب. بصورة عامة ان طريقتهم في التحضير تشبه ما يجري في كل المشرق

والتي نسير عليها ايضا في فرنسا عدا انهم يشربونه عادة حارا يغلي دون انتظار القهوة بان تهدأ ودون اضافة السكر ويسكبونها في فناجين صغيرة للغاية. وهناك من بينهم من يحيط غلاية القهوة بقطعة من القماش الرطب حين يخرجها من النار وهذه العملية تسبب مباشرة ترسب مسحوق القهوة ويجعل السائل اكثر صفاء. وبنفس العملية تتكون قشدة رقيقة على سطحها وعندما تسكب في الفناجين يكثر من تصاعد الدخان مما يشكل نوعا من الغمام ذي الرائحة الذي يستنشقونه بتمتع بسبب الفوائد التي ينسبونها اليه.

قهوة السلطانة

اما عند الاعيان فهناك طريقة اخرى يتميزون بها في تحضير القهوة. فهم لا يستخدمون فص القهوة قط بل يكتفون باللحاء او القشور التي تغلف الفص ويضيفون الغشاوة الرقيقة التي تغطي الفص مباشرة وبهذه الطريقة حين ينتهي الطهو كما يجب فإنهم يعتبرون انه لا يوجد قط مشروب من هذا النوع.

يؤخذ لحاء الثمرة في تمام نضوجها ويكسر ويوضع في مقلاة او قصعة من الفخار ثم يوضع على نار الفحم بينما يتم تحريكه بانتظام حتى لا تتعرض للحرق مثل القهوة بل لكي تكتسب بعض اللون. وفي الوقت نفسه يغلى الماء في مغلاة وعندما يصبح اللحاء جاهزا يسكب في الماء بما فيه

الغشاوة ويترك المزيج يغلي مثلما تحضّر
القهوة العادية. لون هذا المشروب شبيه
بافضل ما يوجد من البيرة الانكليزية.
ويحفظ اللحاء في مواضع جافة ومغلقة اذ
ان الرطوبة تفسد طعمه.

وان اصحابنا الفرنسيين الذين لم يشربوا الا من تلك القهوة في بلاط ملك اليمن، عند الحكام والاعيان يقرون ان المشروب طيب لطيف الطعم لا يحتاج حسب قولهم الى اضافة السكر اذ لا يحتوي على مرارة تحتاج الى تعديل بالسكر لا بل ان الطعم لا يخلو من الحلاوة المعتدلة واللذيذة. هذه القهوة تسمى "قهوة السلطانة" ولها مكانتها في البلاد. عدا هذا فمن الواضح انه لا يمكن النجاح في تحضيرها الا في موقعها الطبيعي. ذلك ان لحاء القهوة الضعيف التكوين خصوصا اذا جف كثيرا وتعرض للنقل او الحفظ يفقد من نوعيته الا وهي الطراوة والنضارة.

وقد سأل رجالنا العديد من كبراء البلاد عن سبب استهلاكهم للقهوة وعن منفعتها وان كانت تشفي من داء ما وما تكون فوائده. وكان الجواب اجمالا ان القهوة تغذي وتفيد باشكال شتى عدا عن انها باب من ابواب التسلية والعادات الحسنة. ولا ادري ان كان يجوز ربط استهلاك القهوة الكثير عند العرب بما لاحظه رحالتنا عنهم وهو انهم بسيطو المعيشة واكثرهم ضعيف ونحيف الجسم والى ذلك معتدلو القامة.

واختتم هذه المذكرة باشارتين. الاولى هي اقتناع عرب اليمن لا بل اهل المشرق جميعا بان شجرة القهوة لا تنمو في أي ارض من العالم الا في ارضهم. الا ان هناك من زعم انها صادرة عن الحبشة ومنها انتقلت

الى اليمن السعيد. ويؤيد هذا الرأي تقرير عن رحلة شارل جاك بونسيه الى الحبشة في السنوات ١٦٩٨ و١٦٩٩ و١٧٠٠. ويقول هذا الرحالة انه يشاهد حتى اليوم اشجار قهوة في تلك البلاد لا تزرع الا من باب الطرافة. وهو يصف النبتة دون ان يؤكد بانه رآها هو نفسه. وهذا الوصف الذي يشبه فيه الشجرة يختلف تماما عن شجر القهوة التي شاهدها اصحابنا في بلاد العرب ولذا من الضروري الاقرار ببعض الخطأ في تقدير الرحالة.

ادرج هذا التقرير في المجلد الرابع من الرسائل المحررة للبعثات الخارجية المطبوعة في باريس عام ١٧٠٤.

اضف الى ذلك ان افضل التقارير التي لدينا عن الحبشة ومن بينها الاكثر تقديرا هما تقرير الاب اليسوعي البرتغالي تليز وايضا تاريخ الحبشة بالذات للسيد لودولف الطريف والدقيق للغاية حيث لا نجد ذكرا للقهوة بأي شكل من الاشكال.

> ان صح التقدير بان سكان الحبشة اتوا من بلاد العرب منذ اقدم الازمان كما كتب السيد رودولف فمن المحتمل انهم ادخلوا معهم اليها شجرة القهوة. ولكن يبدو ان نقلها لم يلق نجاحا اذ من غير المؤكد ان نجد اليوم شجرة القهوة في الحبشة.

ومهما يكن فمنذ ان عبرت القهوة من اسيا الى اوروبا وبالنجاح الذي نعرفه لم نتوقف عن استيرادها. ولا نزال نواصل ذلك كل يوم نظرا لارتفاع استهلاك القهوة المتزايد ورغبة في الكسب. وبهذا الشكل هناك اشجار قهوة في العديد من الجبال وفي اماكن اخرى من اليمن لم تعتاد من قبل على زراعتها.

والاشارة الاخيرة هي وجود تحذر شديد شبه شامل في اوروبا ينجو منه بعض المستنيرين وهو ان العرب حريصون كثيرا على منتوج لا ينمو الا في بلادهم فلا يدعون حبة قهوة تخرج منها ما لم تكن احرقت في النار او غليت في الماء لكي يموت فيها الرشيم، حسب ما يقال، فاذا حاول بعضهم زرعها في الخارج تفشل العملية.

وان احد علماء النبات الاكثر شهرة في ايامنا وهو الدكتور الانكليزي جان راي قد وقع هو ايضا في هذا الخطأ، فبعد ان تكلم عن فوائد القهوة ذكر ويا للغرابة "ان القهوة لا تنبت الا في العربية السعيدة ويتعجب كيف ان تلك البقعة الصغيرة استطاعت ان توفر تلك الكميات وكيف توفق اصحاب تلك الثمرة المرغوبة في حمايتها ومنع انتشار بذارها في الخارج لكي لا تنمو فيه اية حبة مما لا يخفض من ارباحهم، الخ..."

هذا الخطأ لا يقوم بعد اليوم وقد شهد رحالتنا وبعد عودة مراكبنا حاملة اكياسا مليئة من ثمار القهوة الكاملة أي ان الحبة في قصها ولحائها المزدوج ودون ان تكون مرت باية عملية حرق او غليان.

ومن المعروف ايضا ان الهولنديين المشهورين بمهارتهم وعبقريتهم في التجارة قد اتوا بالقهوة العربية الى باتافيا حيث زرعوها وانبتوها وتوفقوا في زراعتها في نواحي تلك المدينة الشهيرة الا انهم لم ينجحوا كليا حيث ان ما زالوا يرسلون مراكبهم واموالهم الى العرب عن طريق البحر الأحمر لمواصلة التجارة بالقهوة. ويقال ان ارتفاع الحرارة الشديد في ذلك المناخ قد اجهض انعقاد ثمار القهوة كلها تقريبا. فهي كما قلنا سابقا بحاجة الى حرارة معتدلة والى كثير من الظلال والرطوبة. كما وان الانكليز

ايضا زرعوا القهوة في مدرسباتان ولم يتوفقوا بقدر توفيق الهولنديين في باتافيا فعدلوا عن ذلك حاليا.

وبلغني ايضا وانا اختتم هذه المذكرة انه قد تم زرع القهوة في حديقة النباتات في امستردام حيث نجحوا بإنماء نبتة القهوة والحصول على بعض الثمار بعد زرعها بثلاث سنين. وحتى انه توجد حاليا احدى تلك النبتات الصغيرة في الحديقة الملكية في باريس. يضاف الى ذلك ان السادة قضاة امستردام قد ارسلوا الى الملك شجرة قهوة بالغة ومتقدمة على النحو الذي ذكرناه.

وهذا ما يكفي برهانا ان العرب لا يملكون اية حيلة لمنع انتشار القهوة وثمرتها وانه لم يعد مستحيلا ان نجد اخيرا تلك الشجرة في اشهر حدائق اوروبا. اقول في اشهر حدائق اوروبا. ذلك ان تلك الاشجار ان استطاعت الدوام والثبات عندنا فستبقى بالنسبة لنا نوعا من الشيء الطريف والنادر حيث تدخلت المهارة والفن لتقوى على الطبيعة. ويمكن الظن ان ذلك لن يؤول الى أية نتائج من شأنها ان تؤثر على اكثار القهوة خصوصا في مناخات مختلفة كل الاختلاف عن المناخ الذي هيأته العناية الالهية لانتاج تلك الشجرة.

جان راي في كتابه "تاريخ النباتات العالمي"، منشورات لندن، ١٦٨٦.

الفهارس

169

فهرس أسماء الأعلام

- أ -

أبو الفداء: ٧، ٤٧، ٦٠، ١٧٨

أمير البحر: ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ١٠٩، ١١٢

أوكلي (استاذ اللغة العربية): ٥

أيوب: ٦٨

إيليا النبي: ١١٣

- ب -

باربيه (الجراح): ١٥١، ١٥٨، ١٧٠، ١٧٥، ١٨٠

بطليموس: ٧٦

بوريت (مستشار الملك): ٨

بونشارتين (الكونت): ٢

بيتي دي لاكروا: ٥

بيرا (البانيان): ٦٦، ٧٨، ٧٠، ٩٠، ٩٢، ١١٣

- ت -

تليز (الأب اليسوعي): ١٨٩

- ج -

جان راي: ١٦٥، ١٦٦

- ح -

الحسن بن علي بن أبي طالب: ٩٩

الحسين بن علي بن أبي طالب: ٩٩

- خ -

الخضر (إيليا) النبي: ١١٢، ١١٣

خوان غرافيوانجلو: ٧٦

- د -

دي بيزلين: ١٢٨

دي شامبلورية لوبرون: ١٢، ١٥، ٢١، ٣٠، ٣٩، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٩، ٦٢، ٦٨، ٧٣، ٧٦، ٨٩، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠

دي فيلر: ١٣١

دي لاغريلودييز: ١٣٠، ١٣٧، ١٣٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٧٥، ١٨٠

دي لالاند: ١٢٨

دي لامرفيل (القبطان): ٥٨، ٥٩، ٦٤، ٦٧، ٧٣، ١٥٦

دي نواييه: ١٨٥

دي نوير (الجراح): ١٥٠، ١٧٦، ١٨٠

دي رومور: ١١

دي ليل: ٦

- ر -

روجيه (الملك): ٧

ريكوليه: ٦٧، ٦٨

رينيجا (المترجم): ٤٠

- س -

سليم الأول: ١٠١

سليمان الثاني: ٤٨

سليمان الكبير: ١٠١

سيدي احمد: ١١١

سيدي عبده: ١٥٠

سيدي محمد: ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٦، ١١٠

- ص -

صالح بن علي (حاكم المخا): ٦٨، ٧١، ٤٩، ١٥٦

صالح الحريبي: ٦٥

صلاح الدين الأيوبي: ١٦٩

- ع -
عبد الله (المترجم): ٢٠
علي بن أبي طالب: ٧٧، ٩٩، ١٦٧، ١٦٨
علي بن عبد الوهاب: ١١٢

- غ -
غييوم سرو (الملقب بالصليب): ١٤٦، ١٤٧

- ف -
فاطمة الزهراء: ٩٩
الفقيه الخضر (ايليا): ١١٢، ١١٣
فلاكور (الحاكم): ١٣٢

- ق -
قاسم قاسم الوضيع: ١٣٣

- ل -
لوباهي (القبطان): ٢٧
لودولف: ١٨٩
لولامبارديير (طبيب): ٤٥

- م -
محمد بن ديني (السلطان): ٥٣، ٥٤
محمد النبي ﷺ: ٥٣، ٥٤، ٦٥، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٨٤، ٨٧، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٤، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٨
المهدي لدين الله أمير المؤمنين: ٦٧، ٧١، ٧٣

- هـ -
هالي أ.: ١٩

فهرس أسماء الأماكن والبلدان

- أ -
آسيا: ٥٤، ٨٦، ١٢٨، ١٦٤
اثيوبيا (أثيوبية): ١٣، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٤٦، ١٥٤
ادل وزيلا (مملكة): ٤٦، ٤٨، ٥١
ارم: ١٥٤
اسبانيا: ٣٠، ٣١، ٦٨، ٧١، ٩١، ١٢٣، ١٢٤، ١٥٣
اسطنبول: ٨٤، ١٤٨
افريقيا: ٣٠، ٤٦، ٥٦، ٨٦، ٩٩،
امستردام: ٩٩، ١٦٦
انجوا: ١٣٠
انجوان: ١٣، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٨، ٢٩، ٣٠
انكلترا: ١٥٦
اوروبا: ٥٤، ٦٠، ٦١، ٧٣، ٧٥، ١٠٥، ١١٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٠، ١٦٤، ١٦٥
ايرام (يريم): ١٣٣

- ب -
الباب البحري (عدن): ٣٥، ٣٦، ٤٣، ٤٤، ٦٠
باب الصرفة: ٦٣
باب المندب: ٤٦، ٥٢، ٥٣
باب جسر الماء: ٤٢
باتافا: ١١، ١٢، ٦١، ١٦٥، ١٦٦
باريس: ٣، ٤، ٨، ٧٢، ١١٦، ١٥٦، ١٦٤، ١٦٦
بتاي: ١٠١
البتراء: ٦٦، ٧٣
البحر الأبيض المتوسط: ٧٦
البحر الأحمر: ٦، ١٢، ٤٦، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٥، ٧٢،

٧٣، ٧٤، ٧٦، ٨٢، ٨٨، ٩٩،
١٢٨، ١٢٩، ١٤٨، ١٦٥
بحر الهند: ٧٣، ١٢٢
برست: ١٢٥
بريطانيا: ١٢١
البسك: ١٢٣
بلاد العرب: ٦٦، ٨٤، ٨٦،
٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٥،
١٢٢، ١٥٣، ١٦٤
بونتشري (بوندتشري): ١١٤،
١٣٠
بيت الفقيه: ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧،
٩٤، ٩٥، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٠
بيت الله الحرام: ٨٧
بيتر بوتد: ٩٩، ١٠١، ١٠٦
البيرو: ٢٦، ٧٦، ٧٧

- ت -

تاغورا (تاغيورا): ٤٦، ٤٧،
٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٥،
تامارين (تماريدا): ٢٦، ٢٧
ترانكبار: ١٢١
تركيا: ٤٥، ٥٨، ٦٦، ٧٥، ٧٦،
٧٧، ١٤٨
تريفو: ٤
تعز (تاج): ١١٠، ١٣٢، ١٤٥،
١٥٩
تهامة: ٨٨

- ج -

جبل الثلاث: ١١٧
جبلة: ١٣٣
جدة: ٧٦، ٨٨، ١٤٩
جزر سان فانسان: ١٠
جزيرة الأختين: ٢٠
جزيرة أسور: ١٢٣
جزيرة اساسيون: ١٠، ١٢٢
جزيرة بوربون: ١٠٧، ١١٣،
١١٧، ١٥٩
جزيرة بون: ١٠٦
جزيرة جيرسي: ١٣
جزيرة ديو: ٩٢
جزيرة الرأس الأخضر: ١٠

جزيرة سان لوران (مدغشقر): ١٣، ١٤، ٢٨، ١٠٤، ١١١، ١١٣
جزيرة سان موريس: ١٠٣
جزيرة سانت ماري: ١٠٤
جزيرة سقطرة: ١٩، ٢٠، ٢٧، ٩٩، ١٢٨
جزيرة السورلينغ: ١٢٤
جزيرة سيلان: ١٢٨
جزيرة الصعود: ١٠، ١٢٢
جزيرة عبد الكوري (ابدلكوريا): ٢٧
الجزيرة العربية: ٤، ٦، ٧، ١٠، ١٨، ٢٧، ٣٠، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ٦١، ٨٢، ١٠٧، ١٤٦، ١٤٧
جزيرة مسكاران: ١٠٦
جزيرة موالي – مويلي: ١٧، ١٨
جزيرة موريس: ٩٩، ١٠١، ١٠٣
جزيرة وسان: ١٢٥
جلباني: ٧٤
جورجيا: ١٤٦
جومر: ١٠
الجون: ٢٧، ٤٩، ٥١، ٩٨

- ح -

الحبشة: ٨٨، ١٦٣، ١٦٤
الحجاز: ٧٣، ٨٨
الحرمين الشريفين: ٨٥، ٨٧
حضرموت: ٦٦

- خ -

خليج سقطرة: ٢٧، ٢٨
خليج عدن: ٤٣، ٧٣
الخليج الفارسي: ١٤، ٤١، ٧٣
خليج مسالي: ١٣، ١٤
خليج مكة: ٥١
الخليج اليمني (العربي): ٥١

- د -
دامار (ذمار): ١٣٣، ١٣٤، ١٤٣
الدانمارك: ١٢١، ١٢٢

- ذ -
ذمار (دامار): ١٣٣، ١٣٤، ١٤٣

- ر -
الرأس الأخضر: ١٠
رأس جرداسوي: ٢٧، ٢٨
رأس جزر القمر: ١٢٨
رأس الحد: ٧٣
رأس الرجاء الصالح: ١١، ١٢، ١١٣، ١٢٢، ١٢٩
رأس سقطرة: ٢٠، ٢١
رأس الشعيرات: ١٢
رأس عدن: ٣٤، ٤٥، ٥٣
رأس غاريسوي: ٩٩
رأس فرتك (فرتاش): ٥١، ٩٠
رأس فريليه: ١٢٦
رأس كارداڤوي: ٥١
رأس كناري: ١٠
راديا – رازيا (الرزاعي): ١٦٠
الركن المكرم: ٧٨

- ز -
زيلا: ٤٦، ٤٨، ٥١
زبيد: ٧٤
زيدن: ٧٦

- س -
سان بول: ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١٤، ١١٨
سان جرمان: ٣٨
سان دونيس: ١٠٦، ١٠٩، ١١٤، ١١٨
سان سيباستيان: ١٢٣
سان لوران (مدغشقر): ١٣
سان مالو: ٩، ١٣، ٩٩، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٨، ١٥٦
سانت اتيين: ١١٥
سانت سوزان: ١١٤

سورات: ٩٢، ٩٩
سوريا: ٧٣
السويس: ٧٦
سيلاوس: ١١٧

- ش -
شار: ٩٠

- ص -
صقلية: ٦
صنعاء (صنعان): ٧٤، ١٥٤

- ع -
عدن: ٢٧، ٣٤، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٦٦، ٧٣، ٧٤، ٩٠، ١٢٨، ١٢٩
العربية السعيدة: ٢، ٤، ٦، ٨، ٩، ٢٤، ٣١، ٣٤، ٣٨، ٤٣، ٥١، ٦٦، ٧٣، ٨٩، ٩٠، ١٢٨، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٥
العربية الصحراوية: ٧٣

- غ -
الغانج: ١٢

- ف -
فارس: ٧٣، ٨٦، ١٥٠
فرتك (فرتش – فرتاش): ٢٤، ٥١، ٩٠، ٩٩
فرجينيا: ٤٩
فرنسا: ٢، ٩، ٥٩، ٧٧، ٨٢، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١٢٣، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٦١، ١٦٢
فلسطين: ٧٣
الفيجي: ١٢٣

- ق -
قاديس: ٩، ١٠
القدس: ٨٥

- ك -
كامبردج: ٥
الكافر (سواحل): ١٢، ١١٥، ١١٧
كورماندل: ١١٤، ١٢١
كونشية: ١٢٥

- ل -
لندن: ١٦٦
لشبونة: ٩، ١٠

- م -
ماسكاران (ماسكارني): ١٠٦، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٥٦
مالاغا: ١٠٨
مالديف: ٩٩
مانزري (المنظر): ١٣١
مانزول (المنزل): ١٣٢، ١٣٣
المحيط الأثيوبي أو الهندي: ١١٣
المحيط الهندي: ٦، ٨، ٥٣، ٧٣، ٩٠
المخاء: ٤، ٢٧، ٤١، ٤٥، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٣، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٧، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٥
مدرسباتان: ١٦٥
مدغشقر (سان لوران): ١٣، ١٤، ٢٨، ١٠٤، ١١١، ١١٣
المدينة المنورة: ٧٣، ٧٦، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨
مسالي: ١٣، ١٤، ١٧، ١٩
مسقط: ١٤
مصر: ٧٣، ٧٦، ٧٧، ١٤٦، ١٤٨
مضيق البكاء (باب المندب): ٥٢
مقام إبراهيم: ٨٧

مكة المكرمة: ٥١، ٧٣، ٧٦،
٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨،
٩١، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٥
مواهب (مواب): ٨٩، ١٣٤،
١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢،
١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧،
١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٠
موزانبيق: ١٣
موزع (موسى): ١٣١
ميدلبورغ: ١١

- ن -

نوتردام دي باريس: ١١٦
نورماندي: ١٣٨، ١٦٠

- هـ -

الهند: ١٥، ١٨، ٢٩، ٥٣،
٦١، ٧٣، ٨٨، ٩٢، ٩٤، ٩٨،
١٠٤، ١٠٧، ١١٢، ١١٣،
١٢٢، ١٣٠
هولنده: ٩٠، ١٠١، ١٠٢، ١٢١

- و -

واترفور: ١٢٣

- ي -

يريم (اريام): ١٣٣
اليمن: ٢، ٦، ٥١، ٥٨، ٥٩،
٦٠، ٦٦، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٧٤،
٨٣، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١٢٨،
١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،
١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠،
١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨،
١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦،
١٦٣، ١٦٤

الفهرس

تمهيد ..... أ
تقديم ..... ث
إلى السيد الكونت بونشارترين وزير وسكرتير دولة فارس الملك ٢
توطئة ٤
موافقة ٨
الرحلة إلى العربية السعيدة – الرسالة الأولى ٩
الرحلة إلى العربية السعيدة – الرسالة الثانية ٣٥
الرحلة إلى العربية السعيدة – الرسالة الثالثة ٥٧
إبرام اتفاقية بين حاكم المخاء وبين قباطنة البواخر الفرنسية ٦٢
الرحلة إلى العربية السعيدة – الرسالة الرابعة ٧٣
الرحلة إلى العربية السعيدة – الرسالة الخامسة ٩٩
رواية الرحلة إلى المخاء ١٢٨
مذكرة حول شجرة القهوة وثمرتها ١٥٧
الفهارس ١٦٧

l'époque. Le récit de Jean de La Roque reste, à ce titre, un témoignage important d'un point de vue littéraire et historique.

Dans le cadre de la participation du CEFAS aux manifestations de *Sanaa 2004, capitale culturelle du monde arabe*, le ministère de la Culture et du Tourisme yéménite a bien voulu prendre en charge l'impression de cette traduction, en collaboration avec le CEFAS. Nous tenons donc à le remercier tout particulièrement de cette coopération. Nos remerciements vont également à Mounir Arbach, chercheur au CEFAS, pour la traduction de l'ouvrage, ainsi qu'à Tomislav Klaric, doctorant de l'université de Göttingen (Allemagne), qui a bien voulu introduire ce récit et resituer cette première expédition française au Yémen dans son contexte historique et économique.

Jean Lambert

Directeur du CEFAS

notamment celle de la visite en 1712 d'une délégation française à la cour de l'imam al-Mahdî Muhammad (1686-1718), également connu sous le nom de "Sâhib al-Mawâhib", depuis la ville côtière de Mukhâ'. La délégation française était composée du chirurgien M. des Noyers, de son assistant M. Barbier et de M. de La Gredauliere Major de la garnison de Pondichery, chef de la délégation. Ce récit est resté célèbre par le nom du Capitaine M. de La Merveille qui mena la deuxième expédition au Yémen (1711-1713).

Sur le plan historique, ce récit fournit, en premier lieu, de nombreuses informations sur le Yémen du XVIII[e] siècle. Il nous éclaire également sur le regard que les Français avaient sur l'Orient en général et sur le Yémen en particulier. Enfin, ce récit nous fournit pour la première fois, une description de la vie quotidienne à la cour de l'imam. Jean de La Roque consacre par ailleurs un chapitre sur le café, sur son arrivée et sur son usage en Europe. A cette époque, les Français pénètrent le marché du café, après la perte par les Portugais de leur suprématie sur le commerce international.

Comme le remarque Jean de La Roque, les marins français ne connaissent pas la langue de leurs interlocuteurs commerciaux en Arabie. Leur but est avant tout d'ordre économique et lucratif. Par conséquent, rares sont les tentatives de pénétrer dans le pays et très peu nombreuses sont les observations sur la société yéménite de

Préface

Parmi ses nombreuses missions, le Centre français d'archéologie et de sciences sociales (CEFAS) de Sanaa s'est fixé pour objectif d'offrir au public arabophone l'accès à certain nombre d'ouvrages, de travaux et de recherches rédigés en langue française et portant sur le Yémen et ses voisins. Compte tenu de l'importante production francophone écrite sur l'Arabie du Sud, il faut bien entendu faire des choix parmi ces différentes œuvres et travaux. Ces choix sont dictés en premier lieu par l'originalité du contenu mais aussi par des demandes formulées par nos partenaires arabophones. Notre souci est également de répondre aux besoins du monde universitaire, tout en restant accessible à un large public. Dans cette perspective, le choix s'est donc porté ici sur le récit de voyage de Jean de La Roque : *Voyage de l'Arabie heureuse (1708-1713)*.

Ce récit, en relatant l'un des premiers séjours des Français en terre arabique, inaugure près de trois siècles de relations et d'amitié qui ont été célébrées lors d'une récente expostion organisée à Sanaa par le CEFAS et le Centre national des archives yéménites.

N'ayant pas, lui-même, foulé la terre yéménite, c'est à partir des cahiers des marins français de Saint Malo que l'écrivain Jean de La Roque (1661-1743) compile un récit plein d'anecdotes,

Ministère de la Culture et du Tourisme (République du Yémen)

Voyage de l'Arabie Heureuse

Jean de La ROQUE

Traduction: Mounir ARBACH

Introduction: Tomislav KLARIC

Centre Français d'archéologie et de sciences sociales de Sanaa
2004

Voyage de l'Arabie Heureuse

Jean de la ROQUE

Traduction:
Mounir ARBACH

Introduction:
Tomislav KLARIC

Centre Français d'archeologie et de sciences sociales de Sanaa

500

SANAA 2004
صنعاء عاصمة الثقافة العربية 2004
Sana'a 2004 the arab cultural capital

الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة

صنعاء - ص.ب.: (٣١) - (٢٣٧) - هاتف: ٢٣٥١١٤ - فاكس: ٢٣٥١١٣ - بريد الكتروني moc@y.net.ye